www.kotobarabia.com

قصص

الديوان الأخير

عبد الحكيم قاسم

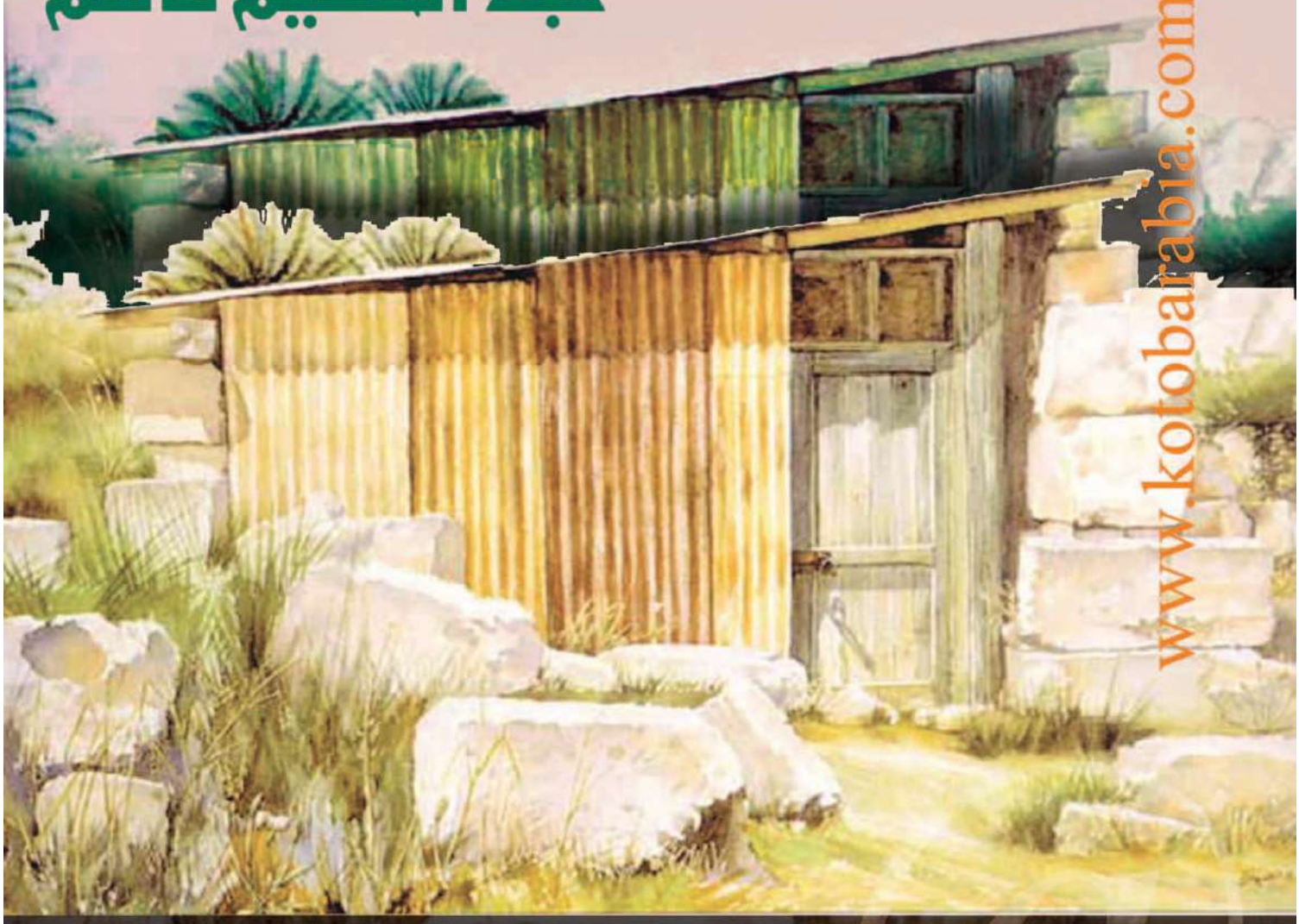

www.kotobarabia.com

الديوان الأخير

عبد الحكيم قاسم

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

العقاب

اليوم في هذه الدار جنون، خوار الأبقار والجواميس، ثغاء الشياة، قراق الفراخ، صراخ النساء والعيال، البخار من القدور، الدخان من الكوانين والأفران. والحمارة السوداء . في هذا الصخب المجتاح . أربعة قوائم واهنة ملتوية، وبطن ضامر يغطيها شعر شاب سمارَه بياض كثير، وذيل ذ اص كالعصا، ورقبة مهزولة تثقلها هامة هائل ة هاوي ة متدلي ة الأذنين، وعيناها الكبيرتان تحدقان في الأرض بلا كلال.

فإذا ما جنّ الليل وكبست الزريبة بالظلام، وصَ مَّت في الشقوق والقيعان حياة غريبة: صرير متواصل مكت وم، زفرات قلقة متألمة، رفة جناح منزعجة قاطع ة وصـ رخة موجزة نهائية.تهاويل مبهمة تتقلّب في جوف الليل، والحمارة السمراء تحدق تحديقًا مرتجفا في الظلام الـ دامس، لكنه ا لا تزال قادرة على كدّ الطريق المترب . مثقلة بالأحمال . في الشمس الحارقة. ظهرها الطويل نحل شعره وأثخن بالجروح الناغلة، تمشي تدفع أمامها هامتها الثقيلة، وعيناها الكبيرت ان مفتوحتان على تراب الطريق، لا يستحثها أحد على الإسراع،

عرفوا لها وقع خطوها البطيء المتواصل، كأنما هي قطعة من الأرض تتحرك متئدة في مسارها.

ألقى الولد على ظهرها زكيبة قديمة وقفز اعتلاها. ساقاه حول جنبيها مثل مجدافين غليظين وهي مركب بليدة. الولد على ظهرها ركبه ألف عفريت: يتقافز، يصيح، يغني.. يطوِّح ساقيه بقوة. انحسر الجلباب على فخذيه: عضلتين مترعتين رواءً ونضارة، والكيان الهالك يجرجر ظلاً مهتزًا على حصباء الطريق، والشمس على الامتداد الشاسع كاشفة، وهامات الشجر مطرقة، والوريقات على العيدان وجوه طفلية ناعسة، والقنوات حالمة. والبنت تسير على البعد؛ الورد على جلبابها، تسند "الغلق" على رأسها بساعديها. عروس شهية، ردفاها تحت ثوبها تهمسان، تخفق مشبوبة مشتاقة. والحمارة تسير، حوافرها تترك على التراب بصمات مستديرة متتابعة.

ازداد الولد هياجًا. ثقيل الكتفين، ثقيل الذراعين، عظيم الكفين، يقبض على عرف رقبة الحمارة، يعصر الشعر الخشن بأصابعه الحديدية، يجلجل ضحكات عالية في الفضاء الصامت. استدارت البنت، ألقت عليه نظرة ثم عادت تسير. ربما أطلقت أيضًا ضحكة صغيرة! لأن الولد صاح صيحات

شبقة مدوية. والحمارة تسير سيرها المتأني الذي لا يتغير. ربما أبطأت البنت، أو شلت خطواتها نظرات الولد الزاعقة برغبته، أو إرادته المتوثبة في ساعديه الهائلين المندفعين.. ربما، لا يهم. لكن المسافة تضيق حتى تدخل الحمارة متسللة إلى جوار البنت السائرة.

البهجة تجتاح كيان الولد كالريح العاتية. التفتت البنت له: وجنتاها ناضجتان مزغبتان، شفتاها ثمرتان شهيتان. وضع كفه على قمة كتفها . هشة في يده . عيناها طاعة مدللة. تُنَحّي يد الولد عن نفسها، يكاد "الغلق" أن يسقط من على رأسها؛ أنزلته وحملته في يدها.

امتلأ صدر الولد بقوة عظيمة، أحاط رقبة البنت . من تحت ضفيرتها . بيده. رقبتها نحيلة ناعمة، تحاول إبعاد يده فلا تستطيع. استندت بمرفقها على وركه الممتلئة، أحاط كتفيها بساعده، أدخل يده من طوق ثوبها. ثدياها صغيران ناعمان، تتأوه مبهورة خجلة، وهو يلهث لهاثا عاليا ولعابه يبلل شفتيه.

البنت تتعثر تكاد تتكفئ على وجهها، ملهوجة تعدل غطاء رأسها. احتملها الولد من تحت إبطها، رفعها في

الهواء ثم وضعها أمامه على الحمارة. وجهها لوجهه، الغلق يتطوح في يدها، والحمارة تحتهما تسير خطوها الواهن الدؤوب.

أخذ البنت إلى صدره العريض: يقبّل رقبتها، يعض شفتيها، يعصرها إليه. جلبابها انحسر عن ساقيها، أزاحه لأعلى، عرَّى ظهرها وأحاطه بساعديه، دفنت وجهها في رقبته وهي تئن أنينًا مرتجفًا لاهثًا.

ثقلت خطوة الحمارة من حملها، ازداد اقتراب خشمها من الأرض حتى كان يحفّ بالتراب، لكنها تسير خطواتها المتواصلة الكئيبة الإيقاع. ألصق الولد فخذيه بجنبي الحمارة، أشرع ركبتيه، أدخلهما تحت وركي البنت العاريتين، ومن ظهرها دفعها إليه حتى أصبحت محمولة على فخذيه العاريتين. قبض عليها بقوة، دفعها إليه دفعة أخيرة حتى استقرت، شهقت شهقة عميقة وانغرس سنها في لحم كتفه الصلب، وبدأت أصابعها تضعف عن مقبض الغلق حتى خلته فسقط متدحرجًا، والحمارة تسير بالجسدين المتحاضنين.

يا له من فعل شنيع حملته الحمارة السمراء القديمة على ظهرها، إثم قبيح في الضحى العالي، في هذه الشمس

الكاشفة. هامات الشجر مطرقة صـ امتة، وجـ وه الورقـ ات الطفلية تصحو دهشة، والقنوات كابية أسيفة.

احتملتِ العقاب أيتها الحمـ ارة السـ مراء، احتملـ ي العقاب الذي سوف يحل. الويل لك.

بدأت الحمارة تهزل حتى أصبحت عظامًا متسـ اندة، اتسعت عيناها تدمعان بلا انقطاع حتى عميت، وأصبح العمر كله ظلامًا مبهمًا مُخَوَّنا بالهمسات والصـ راخ والفوضـ ى. أصابها الخبال، مطارق الرعب تدق رأسها، تنوشها، تدفعها، تجري تتخبط في الحيطان.

حديث المساء

حدثت زوجتي ذات مساء، فقلت لها:

. إنني مشتاق لأكل الحمام المحشو بالفريك.

مسّدت شعري وأنا ممدد على الأريكة في ردهة بيتي، وقالت:

. ذلك بأنك أكلت في الغداء عدسًا شحيح الدسم، إذن تجوع باقتراب موعد العشاء!

قلت لها:

. لا.. إن عدس الظهر كان طعامًا طيبًا جدًا، إنني فقط أتذكر أمي. يا ربي لهذه الأم الرائعة، حينما تدس بـ رام الفخار حافلا بأصناف الخضراوات ولحم الضأن في الفرن..! يا الله.. يا الله.. كانت الرائحة تسكرني والمذاق..!

قالت لي زوجتي:

. إنني لم أجرب طهو أمك الرائع. كنت أعيش في طنطا وآتي لكل مرة في الأسبوع في أول زواجنا، أنظر لا أجد في انتظاري إلا الباذنجان المقلي!

قلت لها:

. لا تكذبي على امرأة ميتة! أكانت تتعس نا نح ن الخمسة بالباذنجان المقلي، فقط من أجل قدومك أنت؟!

قالت لي:

. هذا الذي وجدته والله في طب ق عش ائي، قط ع الباذنجان مسودة بالقلي!

قلت لها:

. أتريدين أن تقولي ف ي الس يدة الجليل ة قول ك؟ أتريدين أن تسوئيها؟ وما علمك بها؟ عشت أنت معها ع دة شهور، وأنا الذي عشت معها خمسة وثلاثين عامًا طوالا!

قالت لي:

. إنني كرهتها! إنني أكرهها، ليس لي في ذلك ي د ولا حيلة!

قمت من رقادي، استويت قاعدًا بإزائها على أريك ة الردهة، وأخذت يديها في يديّ، كلمتها كلمات تفيض حنانً ا، قلت لها:

أترين الرجل الذي يكره أم ه، ويحق ر ذكراه ا، أتحبينه يا امرأتي؟ أنا لست واحدا من هؤلاء! رحم الله السيدة

الفاضلة! كنت أعود للبيت، أفتح الباب على لهفتها، مزدهية الوجه، فرحانة بما صنعت لي عند رجوعي!

قالت زوجتي لي:

. إنني أكرهها، إنني أغار من حنينك إليها، كنت أتمنى لو حبلت بك وصنتك في رحمي، وأعززتك يا ولدي!

قلت لها ضاحكًا، ويداها ما زالتا في يدي:

. بطنك لا يتسع لي يا صغيرتي!

قالت ملاحقة مواصلة:

. يتسع لك، ولرغائبك وأحلامك، ونزقك ولعبك، وغضبك ورضاك.. ورضاك يا بني!

تركت يديها رويدا رويدا، وأرحتهما في حجرها. مشت القشعريرة في عظامي. قلت هامسًا:

. أنت تصغرينني بأحد عشر عامًا، ويوم تزوجتك كنت بريئة من ذلك المحال!

قالت شاردة العينين حالمة:

. إنني امرأة قديمة، امرأة قديمة، أقدم منك، حبلت بك، وتألمت وتوجعت، وجاءني المخاض وولدتك!

تقلصت أمام عينيها اللتين لا ترياني، وبدأت أن زاح متراجعًا عن الأريكة وأنا أهمس:

. أه..!

وهي تواصل حديثها:

. ليس في الدنيا امرأة لها عليك حق الولادة، أنا فقط الوالدة، بطني لا يزال يحن لك، تكومت فيه شهورا وسـ نينَ، وأنا حملتك وهنًا على وهن!

بلغت أقصى الأريكة متربعًا ويداي متعانقتـ ان فـ ي حجري، والقشعريرة تأخذ بعظامي، وأنا أحدق في زوجتـ ي، وصوت تردد أنفاسي يعلو، وهي تواصل:

. لا تشبه أحدا إلا إياي! لا.. هذه أختـ ك؟ وتلـ ك أختك؟ وذلك أخوك؟ لا براء لرحمي من الحبل بعدك.. أنـ ت وحدك، لا شريك لك!

أغسطس ١٩٨٧

صانع القهوة

وأنا اشتريت لنفسي لفة فيها شـ طيرتان، وانتحي ت جانبًا: آكل، أستطعم الجبن بالزبدة. شدني وجه الفتى المكلف بصنع القهوة هنا: واقفا قدام الموقد، كلما فرغ من صنع كوب ناوله لمنتظره، أو نادى على الجالس يرقب. ألـ وك لقمتـ ي، وعيناي على الجندي الذي يخدم في المقهـ ى، أتطلـ ع أرى استياءه وقهره، وكآبة ملامحه تستر ثورانا داخله.

تذكرت عمي وابن عمي اللـ ذين قضـ يا خـ دمتهما العسكرية . وكان وقتهما رديئًا . يأتيان بالتضرر والمواجع والشكوى، ويرحلان رجوعًا بالمدامع. هذان، وكل من جرب الجهادية، قبلهما أو بعدهما، حكاياتهم حفظت وبقيـ ت سـ حبًا داكنة على الجبين وفي العينين. نعم.

تذكرت، مريرة الذكرى، إلا أن الجبن بالزبـ د فـ ي شطيرتي بقي ملذا. جاء رجل عجوز يلبس منامة مخططـ ة، وفوقها معطف منزلي من الصوف المربعـ ات جلـ س إلـ ى جماعة كانوا في انتظاره، حيوه قائلين: " يا سيادة اللواء.. يا باشا ". والرجل العجوز سَرَّهُ أن تجلت رتبته رغم ملابسـ ه. قال محدثا الجماعة المحيطة به: " إن الجراحة التي أجريـ ت

لي نجحت، الحمد لله، سأخرج بعد خمسة أيام.. آه ". ثم كلـ م المجند الفتى المشغول بالمشروبات الساخنة للإفطار، كلّمـ ه دون أن يستدير له. قال يسأله: " عندك كوكاكولا؟ " وهذا اقْتَمَّ لون وجهه سترا على الغل الذي يبين في أعصاب يديه. قال ردا على العجوز اللواء: " لا ". وأنا قلقت. تابعـ ت رسـ وم المشاعر على ملامح الوجهين، لكني بقيت أمضع قضـ ماتي من شطيرتي حسنة المذاق.

تكلم اللواء العجوز يكاد يصيح، وذراعاه طـ ائران، قال: " أخ.. طيب.. عندك شاي؟ إذن آتني بكوب يا ولـ د! ". والولد صنع الشاي، وملأ الكوب، ثم أزاحـ ه علـ ى طـ رف الطاولة التي يقف قدامها. تفكرت: هل يقوم اللـ واء بتنـ اول شايه؟! وقفت اللقمة في فمي. تأملت وجه المجنَّـ د المكلـ ف بصنع القهوة .يحسن به أن يكون في قريته الآن .حتـ ى قام واحد من الجماعة المحيطة بالضابط، وجاءه بشايه، ولما بدأ يرشف من كوبه بدأت أمضغ. إن الجبن بالزبد وحسـ ن الصنعة غريبان على قريتنا.

أمضغ خبزي وأنا أتطلع إلى وجه الفتـ ى: يرهقـ ه كتمان تغير خاطره، وستر الانفعالات. عجبت. أقبل ضابطان

طبيبان على وجهيهما سهر الليل ومشقة الخدمة، جلسا في ركن بعيد، بذلك لم أسمع حديثهما، لكن عيونهما ذابلة في دوائر رمادية. ميزت نداءهما على القهوة في صلف مرهق، والإجابة صمت مكتوم، وأنا تنبَّهت.

صنع القهوة بالعناية الواجبة، وبانصراف أفرغها في فنجالين، نظر لهما، راقاه، نادى على الضابطين الطبيبين: " القهوة! " وجاءه ردهما حاسمًا باترًا: " احملها لنا هنا..! " وصفق أحدهما على الترابيزة التي يجلس إليها بفرشة كفه.

وأنا فقدت كلية الرغبة في الأكل، بقيت مني شطيرة، أعدت لفَّها في ورقتها، وأحكمت اللفّة؛ أراقب الذل الذي بلا آخر على وجه الفتى الموكول بالخدمة. مَرَّ بي حاملاً الفنجالين، وضعهما حيث صفق الضابط الطبيب أمامه بفرشة كفه، ثم يمر بي متدلي الذراعين ساقط الرأس كسير النظرة، إلى حيث يقف قدام الموقد.

وأنا قمت له، وقفت قدَّامه حيث يقف الذين لهم رغائب في مشروب سخن، ابتسمت له، كدت أضحك له من فرط أساي. طلبت شايا وبقيت حتى أخذت كوبي وعدت

لمكاني أرشف مشروبي، أفكر في الشطيرة: هل أحملها معي إذا انصرفت؟

الضابطان الطبيبان قاما ومضيا، الفتى المجند أسرع إلى حيث كانا، منقضّا متحفزًا؛ صحت في نفسي: " إنهما انصرفا..! " لكنه أخذ الفنجالين وعاد. مرّ بي، لما وازاني استوقفته، قلت له: " هل لك في شطيرة..؟ " اختطفها مني، ولوّح بها وألقاها في سلَّة القمامة. صعب عليّ أمر الشطيرة: إنها لقمة مبروكة دسمة، والواحد لا يلقي بالنعمة في القمامة.. حرام. لكن هذا فداء غضبة الفتى. إذن يسامحنا الله.

نوفمبر ١٩٨٧

ليلة رأس السنة

كل شيء بدا رائعًا: الدنيا غسقت، وبدأت المصـ ابيح تتألق في السماء البديع. وراء المباني العالية تلتقـ ي السـ ماء بالبحر في الأفق القريب، تختلط حمرته فتلون الجهة الغربية بالقرمز والأزرق الخطيف، من هنا، من مكانهما في شـ رفة شقتهما، تحجب عنهما العمائر جمال البحر ساعة الغـ روب، لكنهما يحلمان. الخمر مُرَّة وحارقة، يعب عبد العزيز منهـ ا أكوابًا مترعة، ويزري على محمد تردده في الشرب وتألمه، وأنه يتناول كل آن شيئًا من المزّة كي يحسن ريق الخمر في فمه. يزعق فيه:

ـ اشرب يا سيدي! اشرب، ودع للخمر قيادك.

ضحك محمد، وأغرق في الضحك حتى بانت أسنانه؛ أُصوُلُها يجتمع حولها الجير وبقايا الأكل ملوثة بالدماء. محمد يعالج داخله الخوف من هجمة المرض؛ إنه لم يجرّب الخمر كثيرا قبل، هل يُرزأ بنوبة من الإسهال؟ ويزور المستشـ فى؟ ويجيء عبد العزيز لزيارته عاصفًا زاعقًـ ا، ثـ م ينصـ رف ويتركني لآلامي؟ ضحك وردَّ على عبد العزيز:

ـ أسلمها قيادي يا سيدي، عساها تحسن قيادتنا.

ورنت عبارة عبد العزيز، ورَدُّ محمد حاملين تـ راث فحول الشرب، أكانت الخمر دائما مُرَّة وشربها عناءً؟

يخفي تضرره بالمذاق والرائحة، يتناول لقمـ ـة مـ ـن المزّة ويواصل عبَّ الماء الرديء.

بدأ الخدر يمشي قليلا في جسمه، والناس هنا وهناك قبالته بدأت تتلون وجوههم، والمرح يبـ ـرق فـ ـي عيـ ـونهم، والابتسام بشفاههم، عبد العزيز بدأ يضحك لهم. ضحك آخر غير الذي اجتمع هو ومحمد عليه: ضحك آخر نابت من كل جسمه، لا يمكن مقاومته، وهو ممرور في جوهره، يوشـ ـك يتحول إلى شهقات دامعة. قال محمد:

. اشرب يا بني.. واسكر.

ضحكا. ملأ عبد العزيز الكأسين، رفع كأسه ودلقهـ ـا في فمه وبلعها، وبعدُ أحكم إغلاق فمه وإغماض عينيه، وهو يهز رأسه بعنف مستبشعًا الشرب، فتح العينين المخضـ ـلتين بالدموع، وفتح فمه وشهق شهقة قوية. فاتت تجربة الكـ ـأس مرة أخرى، نظر إلى محمد، يعاني بعنف من الشرب. أغرقا في الضحك معًا، ضحكات لها ذيول.

القارورة من الزجاج الأخضر، مخبأة في سور الشرفة حتى لا يلمحها أحد من الجيران. احتملها عبد العزيز في يده وعرضها للنور ليرى مقدار ما استنفدوه في شربهما، بقي فيها ثلثاها. أقرَّها في مكانها وقال لمحمد:

. هذه القارورة أهدانا الكواء إياها.

ضحك محمد وقال:

. إنه رجل صاحب مزاج.. في القوارير الفارغة!

وضحكا. وحضرت عبد العزيز سحنة الكواء: وجهه في حجم منقار دجاجة، وأكمة شعره كثيفة هائشة، وهو يغني إذ ينحني على عمله، وأصابعه تشبه مخالب الدجاجة، تكشف الوسخ على الملابس المكوية.

قال عبد العزيز:

. الله يلعنه..

وضحكا.

على أي حال رجع عبد العزيز عصر هذا اليوم من الكلية ممتلئاً حماسة. دخل على محمد في غرفته، هـ ذا رآه. تطلع محمد إلى عبد العزيز، وهو لا يبدو عليه قصد تغيير ثيابه، أيخرج ثانية؟ وضع الكتاب بجواره، كأن يقـ رأ مـ ن

استلقاء، وأمه جالسة على فرشة قدام السرير، أنصت مبتسمًا إلى عبد العزيز الذي قال:

. اليوم رأس السنة.. الحق بي في غرفتي!

خرج وبقي محمد في رقاده، شقي طوال النهار بـ . . "مصادر الالتزام " وشقي طول النهار بثرثرة أمه. لو كاد ت ضمَّته على صدرها لأنصت لخرخشة الأنفاس من رئتيه ا، واستقر ونام.

قام، استوى جالسًا، دلّى ساقيه يبحث لقدمي ه ع ن شبشبه. يفكر: علام استقر عزم عبد العزي ز؟ م اذا نحـ ن فاعلان في مسائنا هذا؟ خرج من حجرته نحيلا منحنيا ف ي جلبابه الكستور المخطط. سيعبر الردهة إل ى غرف ة عب د العزيز، صارفًا نظره عن ثرثرة أمه التي بلا نهاي ة. أم ا كتاب المدني فهو همّ مقعد مقيم. يدوس برفق عل ى ب لاط الصالة، ويريد أن يعرف ماذا انتوى عبد العزيز؟

وعبد العزيز واقف في شرفة غرفته يتأمل النهار في عصريّة شتوية. الجور مشمس رائق دفيء، ف رح بال دفء والصحو في المناخ. النهار لا يك ف ط وال النه ار ع ن الهمس.. الهمس لعبد العزيز بنوايا الاحتفال. الناس متغيرون

بالحبور، يسرعون متلهفين، يضحكون ويزعقون. كل ذلـ ك بشكل مفاجئ، يراقبهم عبد العزيز مندهشً ا، وتملـ ك قلبـ ه نبضات الفرح. قبالته بيت قديم له شرفة كبيرة حافلة بأحبـ ال الغسيل، لكنها لطيفة مغسولة البلاط. وفي هذا البيـ ت أسـ رة مصرية، لها بنت عذبة وسيمة العينين، البيـ ت المجـ اور . الذي بني حديثا وله شرفة صغيرة أنيقة . فيه تسكن أسـ رة سويسرية، لها بنت شقراء رائعة. طاقة الحـ ب لـ دى عبـ د العزيز مقسَّمَة بين هاتين الغادتين. أيسع السرّ الكامن في تلك العصرية من ذلك النهار أن يبعثهم ا؟ أن يخرجهم ا إلـ ى الشُّرف؟ أن يطلعا له ليتفرجا على فرحته ويباركا سـ روره بأيديهما؟ وخرجتا! أتستجيبان لرؤية النهار؟ أم لإلحاح دعوة عبد العزيز؟ المصرية خرجت لتنشـ ر جوربهـ ا الأبـ يض الصغير، ومنديلها المورد. السويسرية تدلي سلتها من حبلهـ ا الطويل للبواب الجالس على أريكة أمام باب بيـ تهم، تكلّمـ ه كلمات عربية مهشمة حاسمة باترة. ينقل بينهما عبد العزيـ ز بصره، يخف وزنه حتى استحال زنبـ ورًا أحمـ ر، يطيـ ر وينطلق، ثم ينقض على عسلهما، ثم نكص، ثم حلّـ ق. ومـ ا الزّنُّ صوت جناحيه، إنما هو أزيـ ز قلبـ ه. همـ ا عشـ يقتاه

المستحيلتان، إنما المتاح لـ ـه أجسـ ـاد المومسـ ـات المرهقـ ـة المبقعة: سعدية ولطيفة وفاطمة الدّكر. فليحسن به أن ينسـ ـى ذلك، وأن يطير وأن يئزّ حول طبقي عسلهما.

المصرية صغيرة القدّ، مرسومة: هنا الامتلاء وبعده النحافة. وتكور صدرها يفتق التطريز. لايطلّ، لكنه يوشـ ـك. وحلية الذهب ترتاح هناك آمنة قريرة. أتنشـ ـر غسـ ـيلها، أم تمارس طقوس رقصة عميقة الأسرار يدركها الدرويش مثل عبد العزيز؟ اليدان تتحركان متناسقتين بديعتين، والأصـ ـابع تنتقل فتخلق نغمًا؛ يبدو في كبرياء جسدها ولدونته وتـ ـأوّده، ويبدو في قرمز شفتيها ووجنتيها، وسواد شعرها المعقـ ـوص لأعلى، والسواد اللامع في عينيها الثقيلتي الأهداب، تنظر ولا رأت كأنها تحلم. نظرت لعبد العزيز وللبنت السويسرية، ثـ ـم استدارت ثم دخلت مُخلية مسرح الشرفة. صـ ـار موحشـ ـا، أتأمله، وهي تتأمله مـ ـن خصـ ـاص البـ ـاب الـ ـذي أغلقتـ ـه وراءها.البنت السويسرية منحنية على سور الشرفة، متكئـ ـة بمرفقيها، وكفاها وأصابعها متوترة في قبضها علـ ـى حبـ ـل السلة، وساعداها سارحان رائعان، فيهمـ ـا دفء الجرانيـ ـت ولونه الورديّ، وشعرها الـ ـذهب ينسـ ـاب معقوصـً ـا حـ ـول

وجهها، وشفتاها مزمومتان، وفيروز عينيها اسـ تقرّ حيـ ـث هوت السلة، ثم تقوم، تجذب السلة وتطوي الحبل؛ ممشـ ـوقة، وحرير الثوب يبدي بيان جسمها لا التواء فيه. ركنت السـ ـلة وأخذت ما فيها، ونظرت حواليها جاسرة. وحينما صـ ـادفت عبد العزيز عيناها ارتطمت نظراتها بحائط مـ ـن الأسـ ـمنت المسلح يخفيه. دخلت دونما التفات.

أهذا الفرق بين بنتين؟ أم الفرق بين جنسين؟ أتـ ـراه يحب أيهما؟ إنه مفتون بالمصرية ومسحور بتشابك الخطوط المنحنية في كيانها، وهو أيضًا معجـ ـب بروعـ ـة الاسـ ـتقامة وحدتها الوسيمة، من هنا وإلى الأبد في البنت السويسرية، أم هو مكتوب عليه واحدة من المومسات، فتهبط به الأيام عـ ـن مستوى الشرف، عن مستوى الحلم، فيظل يهوي ويهوي؟

جراءته يخفيها في الليل، فـ ـي كتبـ ـه. يقـ ـرأ عـ ـن النظريات الكبرى ويؤمن، وينظر لحياته، ثم يتلو ذلك علـ ـى محمد وعلى غيره ممن لا يفهمون، ولا إلى أشـ ـعاره التـ ـي كتبها في ساعات يأسه ينصتون، ثم يبقون بعد انتهاء الـ ـنصّ ذابلي العيون متدليي الشفاة، يقلب وجهه في العصرية، يمرّغ خديه في دفء الشمس الصفراء.

دخل عليه محمد قال له: أنت وشرفتيك يا حبيبي!

ضحكا. وواصل محمد:

- أنت لا تعرف آخ ر أخب ار "وس يلة" وأبيه ا البواب، لا يأتيني من المنور إلا أخبارهما!

قاطعه عبد العزيز:

- اليوم رأس السنة. سنحتفل. سنشرب حتى يظه ر الخيط الأسود من الخيط الأبيض. أين قارورة الكواء؟ سننزل نملأها. قال له محمد:

- أغير ثيابي أم أنزل هكذا؟

نظر عبد العزيز إلى محمد، تأمله شاردًا. ثم قال له:

- تعال هكذا. لا بأس.

نزلا الشارع. محمد في جلباب ه وشبشب به ومشد يته المستخزية المترددة، والخجل على وجهه والذبول في عينيه، وفمه مفتوح فيما يشبه الابتسام. وعبد العزيز متوهج، يف رط في الثرثرة، لكن جزءًا صامتًا من نفس ه لا يج رؤ عل ى الالتفات وراء؛ ليضبط الابتسام السافر من صاحبه، وعل ى أفواه الناس في الشرف. أخذ س اعد محم د ف ي س اعده، وقارورة الكواء في يده الأخرى. ف ي الش ارع الرئيس ي

فاجأتهما نسمة باردة تأذّى محمد منها، والزحـ ام وانطـ لاق العربات، واللهوجة الغالبة على كل مزاج. متى نرجع بملء القارورة من قاتل الحشرات هذا؟ وعبـ د العزيـ ز اسـ تثاره الزياط في الشارع وازدحام الزبائن وإقبالهم على الـ دكاكين. والنوافذ في العمائر العالية، تسـ ترها السـ تائر المخرمـ ات، وتفضح ما وراءها الأضواء الباهرة، والموسـ يقى، وسـ عى السيدات يقضين حوائج الاحتفال.

تلك نوافذ قلّت في العام المنصرم: الخواجات رحلوا، وجاء المصريون سكنوا مكانهم. بقيت إذن نوافذهم صـ امتة، أو فيها رجل أو امرأة في ثياب النوم.

يومها سار عبد العزيز في طابور الحرس الـ وطني. آلاف: سلاحهم البنادق الروسي، والمدافع السريعة الطلقات، عرض رائع، والخطوات تدب مزلزلـ ة، والقلـ وب تخفـ ق مروّعة. وكان قد جاءهم ضابط كبير في معسكرهم في كلية الهندسة، وخطب هامسًا، لم يسمع عبد العزيز كلمة واحـ دة من خطابه. حل الصمت كاملاً، سمعه يقـ ول: " الله معنـ ا " وحسب أوامره سرنا في الشوارع لنقول للناس: " هـ ا نحـ ن ذي"وكان جنون الفرح في وجوه المصريين، وغُلِّقت نوافـ ذ

الخواجات. لكن جزءًا صامتًا من نفس عبد العزيز يقول: لننس ذلك. اليوم يوم احتفالنا.

وقف قدام بائع الخمر. والدكان نظيف خالٍ من أي شيء، إلا من برميل خشبي هائل مستلقٍ على جنبه يستغرق معظم الساحة وفيه صنبور صغير، تحته وعاء يتلقى فيه القطرات. وعلى كرسي يجلس صاحب المحل اليوناني خلف قمطر. حليقا مصفف الشعر، يلبس حلة كاملة غامقة وربـاط رقبة ملائما، وأمامه راديو يذيع موسيقى راقصة وعلى واجهة محله كلام باليوناني كثير، وكلمة عربية واحدة: "طفية". وعادا بالقارورة مليئة، وتركا صاحب المحل يتأهب لإغلاق دكانه والإسراع إلى الاحتفال.

اشتريا جبنة رومي وزيتونًا مخللا وخبزًا. فتح عبد العزيز باب الشقة ودخل غرفته، حيث يعدّ الشرفة لجلوسهما، ومحمد دخل على أمه. هتفت به من خلال لهاثها وخرخشة أنفاسها:

. أتشربان مرة أخرى؟

ضحك لها محمد وقال: . الليلة رأس السنة. كل سنة وأنت طيبة.

وتركها ليلحق بعبد العزيز.

وكل شيء استقر: الترابيزة عند ركبهم ا، وعليه ا المزّة والأكواب وتحتها قارورة الطفي ة. وبع د أن جرع ا كأسين أو ثلاثة بدت المصابيح كأنما زاد تألقها ف ي غ بش المساء الذي يعتم كل آن. ووراء العم ائر العالي ة: الأف ق مشحون باللون الرمادي يخيف والبحر تحته ساكن. في ق اع الشارع هَمْسُ البوابين أمام البيوت، والشرفتان خاليت ان إلا من ضوء خلف الخصاص، وهَجَسَ السويسريون في احتفالهم وصمت بيت المصريين.

يتحدثان همسًا، وعبد العزيز مشغول بما يحدث عند جيرانه الخواجات. قال لمحمد: اشرب يا سيدي.

قال محمد لعبد العزيز:

- أنت لم تسألني ع ن أخب ار "وس يلة" وأبيه ا وصاحبهما، وضيفهما كل مساء؟

قال عبد العزيز لمحمد: احك.

غرفة محمد لها نافذة مطلة على المنور، الذي ه و مستراح غرفة البواب، باب لها يف تح في ه، وفي ه أحب ال غسيلهم، وأغراض المعاش، وفرشة يفترشونها في الأماسي.

محمد يتأمل " وسيلة " كل آن يطل عليها من خصاص شباك مغلق حتى اعتاد سواد لونها النوبي، فأصبح يتشـ ـهّاها فـ ـي قميصها الخفيف، بعد أن غسلت هِـ ـدَمَها السـ ـود ونشـ ـرتها. وجهها: فيه تغلب السمة الأنثوية سمات الرجولة، لكنها تبتسم عن صفين من الأسنان بيض، فيهما أنوثـ ـة مليئـ ـة بالرقـ ـة والحنان، وصدرها يتكور عامرًا بالفتوة وحوضها. يتشـ ـهاها محمد ويعكف على الشباك أوقاتا طويلة.

قال محمد لعبد العزيز:

ـ أنت تعرف الشاب؟ يـ ـأتي كـ ـل مسـ ـاء زائـ ـرًا، ويجلسون ثلاثتهم في المنور.

قال عبد العزيز لمحمد: أنا أعرف.

وهو يعرف أن زوج " وسيلة " مات، فلحقت بأبيهـ ـا في الإسكندرية لم يعد لها بيت في النوبة، ولا أمل في بيت.

قال محمد لعبد العزيز:

ـ كل مساء يأتي: معه ورقة الدخان المعسّل، ويلقي بها في حجر وسيلة، وهذه تُعَمِّر الجوزة وتولعها، وتطلق من فمها ومن أنفها زوبعة من الدخان.

قال عبد العزيز: يا سلام يا سيدي.

وتعطي الجوزة لضيفها، ويعطي هذا الجوزة لأبيها، وتدور الكراسي على الفرشة في المنور، والـ دخان كثيـ ف محلق، وابتسام " وسيلة " عن أسـ نانها البـ يض، ونظـ رات عينيها اللامعتين محيطة بوجه الضـ يف، ووجهـ ه الطفلـ ي العذب الوسيم ناكس.. هكذا: تبادل حنون بين الشابين، فـ ي جلسة يتحول فيها ثالثهما مغفلاً.

قال محمد لعبد العزيز:

ـ كنت أظن أن الأب جالس في حراسة كنز ابنتـ ه، لكنه ثار بالأمس لإهمالهما إياه، وخرج عنهما، وبقي بعيـ دًا ساعة، تصورت الولد سيقفز على البنت، أو البنت تأخذه في حضنها، لكن الأشياء بقيت رائقة: تعمّر له الجوزة، يـ دخنان في صمت، حتى عاد الأب.

صاح عبد العزيز صيحة حَرَّى: آه.. آه.. يـ ا قلبـ ي المحزون.

قضت عليه الخمر، وأمرضت جسمه، وألهبت ظمأه للشرب، والأضواء تتلاعب، والشرفة صـ امتة، والأخـ رى الثانية واشية بزياط وصراخ. أيسـ تطيع أن يميـ ز صـ وت صراخها؟ هل فيه قدرة على أي تمييز؟

قال عبد العزيز لمحمد وقد اتخذت ملامحه سمة جدية:

. عن " وسيلة " أقول لك إن الزواج مؤسسة فاشلة، الرجل ترك زوجته وعياله في النوبة، والزنا كيفيكون بامرأة تخون زوجها المقبور، وبرجل متزوج وله عيال.. فضيحة!

ثم صمت، أفرغ لهما كأسين، جرعاهما، ثم واصلا شربهما في كآبة ومرض. تفكر محمد أن حكاياته تسببب الكدر، وتفكر عبد العزيز أن حكايات محمد هي مصيره المرتقب.

انفتح باب الشرفة في بيت السويسريين، وخرجت ثلة من شباب المحتفلين وفي مقدمتهم البنت وأثيرها، يتدلقون الخمر من القوارير الفاخرة، ويرمون بالأطباق الصينية، فتهوي وتتهشم بأصوات مفرقعة، وينطلق صراخ الفرح من الشبان. البنت السويسرية أحاطت رقبة أثيرها بساعديها، وقبلته في شفتيه، صفقوا لها . رفقتها من البنات والصبيان . ثم دخلوا جميعًا وأغلقوا باب الشرفة وراءهم.

صدم عبد العزيز، تكلم وهو دائخ:

إنهم يدلقون الخمر الباقية في القـ ـوارير مـ ـن العـ ـام الماضي، ويكسرون الأطباق القديمة.

كلم محمد نفسه: ذلك؟ أم حرقتك القبلة على فم الولد؟

وعلى وجهه ابتسام غامض، ووجه عبد العزيز ساقط أسيف، تكلم بطيئًا:

ـ ليس أمام " وسيلة " ولا زنا. أترى؟ ليس لهـ ـا إلا أن تبادل حبيبها نظرات مقهورة.

ثم اشتعل وتوهج فجأة، وتنفس بقوة، ثم قال:

ـ لننزل الشارع، لنر كيف يفعل الناس بعام مضـ ـى وبعام مقبل. وقبل ذلك كأس للطريق.

في الشارع الرئيس أمم غفيرة، يسيرون فـ ـي شـ ـكل تظاهرة، يهتفون بالموت والحياة لمأفونين لا يعرف أحد عنهم شيئًا، يتفرقون جماعات شتى. يضحكون ويكركعـ ـون، ثـ ـم يصرخون، يلم شملهم من يتبرع بالهتاف لهـ ـم، ويـ ـرددون خلفه. وفي الشرف والنوافذ وجوه مصرية مجنونة بـ ـالفرح، يزعقون ويضحكون ويصخبون، وفي أيديهم الجرادل والحلل المليئة بالماء، يدلقونه على رءوس الناس.

ضحك محمد حتى كاد ينقلب على قفاه، وهو يق ول: إنهم يدلقون خمر عام انصرم.

وفجأة سقطت عليه دفعة ماء أغرقته تمامًا. رآه عبد العزيز يترنح في وقوفه، ويشهق شـ هقات مكتومـ ة، حتـ ى أوشك أن يسقط.

١٥/ ٩/ ١٩٨٨.

قفز وراء السنين

كنت وشيكا راجعًا من غربتـ ـي الطويلـ ـة، وعائـ ـدا لقريتي، وجالسًا في شرفة بيتي. الشفق يجلل أطراف الأفق، وأنا أتأمل حلول صمت المغربية في الشوارع التـ ـي تمتـ ـد؛ ترفعها الكيمان وتهبط بها. والبيوت حراس على ملامحهـ ـم كآبة المساء المقبل. ناكسة مثقلة تنتظر، أن تضوي المصابيح المعلقة في العمدان حاملة الأسلاك الكهربائية، فلعلها تضيء؛ تكسب لون المساء الكابي لمعة مترقرقة.

وقد كان، أشرعت عيني في قطرات الضوء الساجية المتباعدة، وعرضت شبح ابتسامتي للنور، أرهفـ ـت سـ ـمعي لأنفاس الحياة المقبلة من الشقوق والفرج بين كتل الصـ ـمت القائمة.

تيار الحياة لا يأبه بي. إنني لست واحدا من البارزين من أهل قريتي، إذا رجعت من غربتي سلموا عليّ ورحبـ ـوا بي، ثم تركوني لوحدتي بعد ذلك، فلم يكن لـ ـي إلا أن أقفـ ـز وراء السنين، أستجل مشاهد الحياة التي كنت أحياهـ ـا فـ ـي زماني، وأنا جالس في شرفة بيتي. بيت مبنيّ مـ ـن اللـ ـبن، وحوله تشمخ البيوت مبنية بالخرسـ ـانة المسـ ـلحة، تنوِّرهـ ـا

الكهرباء، وبيتي محروم من التيار وليس فيه مرناة، فأبقى في صمتي أتأمل المغربية تقبل بأنفاس الحياة الثّرة.

ها هو ذا تيار الكهرباء يمشي في أوردة الأسلاك، فينفخ الحياة صخابة في جسد القرية، المصابيح تُوسع للعيال ميادين اللعب في الشوارع فتكتظّ بهم، وبالرجال وبالنساء يمضي كل واحد في سبيله. يرتفع مُكَبِّر الصوت على سطح الجامع، ويرتفع صوت المذاييع، وتضاء شاشات المرناوات بضوئها الفضي، والشخوص يتحاورون ويأخذون ألباب النظارة فيثيرون الضحك والدموع.

فإذا بي أسمع زغاريد. ضحكت لنفسي: ها هي قريتي تنصب مهرجان المساء. وإذا الزغاريد تلحّ، وغناء البنات. إن هذا زفاف العروس. كركعت لنفسي بالضحكات وصدى ضحكي يبين على وجوه الناس العابرين، ويهلّل العيال ونحن كلنا نعد نفسنا لمساء حسن.

العروس تأتي متخطّرة، ملونة الوجه، تلبس رداء الفرح الأبيض، وعلى رأسها طرحة المخرّمات الناصعة، وحولها البنات صَدَّاحات بأغاني الفرح، دائرتهن مُؤطَّرة بلمَّة الجدعان، يجاوبن صدح الأغاني بالزعيق. سرت، في جسدي

نشوة رائعة تقفز بي وراء السنين. إنا كنا يلمَنا الف رح م ن قيعان كآبتنا، ويصرفنا عن أي لهو آخر، ونجري نحو بي ت الفرح في مساء ليس منوّرا كهذا، لكن البنات يتغل بن عل ى الظلمة الكابسة بالمصابيح ذات الشعلة يحملنها على رءوسهن ويحدّقن بالعروس حتى ينوّر وجهها بضوء الشعل وفرح ة الزفاف. ونحن الجدعان قلوبنا متوهجة بالغناء والنور، نزعق بأشواق أعمق من المساء. شوق لكلمة حس نة ف ي أغني ة، لقطرة ضوء في المساء، لفرحة العرس.

فرحة الجدعان الآن موصولة بفرحة الج دعان ف ي زماني، وصدح الأغاني بصدح الغناء على أيامي، وفرح ة العروس. إنّا كنا شرهين للفرح لا نتراجع إلا بعد أن ت زَفَّ العروس إلى الغرفة المبيَّضة الجدران، ث م نتجمّ ع تح ت شباكها وندق بكفوفنا ونبحات قلوبنا، نطال ب بمنح ة م ن الكعك، ونظل نلحّ حتى تخرج أم العريس بحجره ا مليـ ان، فيخطف كل من قدر كعكة من حجرها.

إذا بي أسمع ولدا يصيح: " المسلسل " ف ي صـ يحة ملهوفة حارقة، استحضرتني صـ رخته م ن حلم ي وراء السنين، أفقت على موعد التمثيلية التي يذاع كل مساء جـ زء

منها، يا ربي! إن هذه جزء ضروريٍّ من سـ ـهرة المسـ ـاء، فيجاوبه ولد آخر " المسلسل " ثم تصيح بنت " المسلسل " وأنا تسري في أعضائي برودة؛ إذا ينفَضّ سامر الفرح، ويجري كل واحد إلى بيته ليقبع أمام المرناة ويشاهد التمثيلية، وتبقى العروس وحدها مع أمها وأختها وبعض قريباتها يسرعن بها نحو بيت عريسها.

عدت من حلمي وراء السنين إلى حاضـ ـري أتأمّـ ـل بيتي المبني باللبن المحروم من التيار الكهربائي وليس فيـ ـه مرناة. بقيت في شرفة بيتي وحدي غارقا في كآبة المساء.

١٩٨٨

رقوء الدمع

في آخر سفرة إلى قريتي ثقل قلبي حتى أوشـ ـك أن يكون فيه حزن. آخذ القطار في أسفاري منصرفًا عن رفـ ـاق السفر . منشغلين بشئونهم يثقلون على صفو خـ ـاطري بمـ ـا ثقلت عليهم وعثاء الرحلة . أخرج بانتباهي مـ ـن النافـ ـذة، يسيح ناظري في مشاهد الريف وتطيب خواطري.

القطار قدري، وجريه يزلزل القضبان. حينما أسافر أسافر مستسلما للمشقة، يأخذني التطلع إلى الأشـ ـياء، ومـ ـا تجددت المشاهد، إنما تستجد فيها أشياء لفرط تأملي.

في آخر سفرة إلى قريتي توهجت أشواقي واحتـ ـدم التذكر بمقدار مسافة طويلة قبل أن يدخل القطـ ـار المحطـ ـة ويرسو جنب رصيفها. أنظر: أعرف الأرض والمحاصـ ـيل، وأعرف الناس، وأعرف البقرات والجواميس، حتى الحميـ ـر أعرفها، وأضحك.

وأدهش، فالأرض تغيرت بما فيها من كروم، والناس عليهم سيماء العزم والحرد، وآلات العزاقة، يا لها من آلات صخَّابة، تنفث من قلوبها الدخان، كأنّما ملّت الصمت؛ بقـ ـي يلف الريف دهورا، طردت طيور مالـ ـك الحـ ـزين البـ ـيض

النواصع، والغربان السود اختفت، والبهائم قلّت وما بقي منها فهو مهزول منفيٌّ عن عناية صاحبه. دهشت لذلك، وللبيوت المشيدة بالأسمنت المسلح، أراهم إذ يدخل بي القط ار إل ى قريتي ملونة عالية صلدة جهمة، والباقيات من الدور الريفية من اللبن تبدو بائسة متداعية.

أخذني الاغتراب في الدنيا سنين طوالاً بعيدا، والسفر دأبي والقطار قدري، والآن يدب على قضبانه كما كان دومًا في اتجاه قريتي. وإذا ما دخل بحثت عن دارها: من الل بن، لكنها في ذلك الزمان كانت وسيمة بما على واجهتها ا م ن بياض.

كنا نتردد على المدرسة في المدينة؛ يا للعي ال م ن أولاد هذه الأيام. يتخفف البن ات والصد بيان م ن التـ أثم، ويتحادثون ويتضاحكون وحتى يتعابثون، لكنني كنت أجل س قبالتها أتأمل حسنها، فإذا ما لاحظتني هربت بعيني خ ارج نافذة القطار.

أبوها كان نحَّالاً مشهورا. وكان رجلاً نحيفًا وعابس الوجه. كلّمتُهُ . ممتلئا بمهابته .: إن أبي كلفني بحمل هدية من عسل لصاحب له في المدينة. قلت هذا للنحَّال، فقال ل ي

أن أمرّ بدارهم في بدرية الصبح، آخذ مطلوبي معـ ـي فـ ـي القطار الذي يحمل التلاميذ للمدارس. بكرت، طرقت، وانفتح الباب عن دفء الدار وعتامتها ورائحتها، وكانت هي التـ ـي فتحت لي.

لفّنا الدفء والغبش وروائح الدار، غرقنا في عمـ ـق السحر. لم أكن أرى ـ من قلّة الضـ ـوء ـ سـ ـوى ورديّـ ـة وجهها ونعاس عينيها. وفرجت بين شفتيها، وكفاهـ ـا سـ ـعت حتى حطّتا على كفي فصارتا في دفء، في لحظات قصار، لكنها طوال كالعمر.. عمر ضيَّعتُه فـ ـي الغربـ ـة، وحينمـ ـا رجعت وجدت الأشياء تغيرت، ودارهم زالت وشبّ مكانهـ ـا بيت بالأسمنت المسلح، ملون عال صلد جهم، وهو معمـ ـور بناس آخرين.

وقفت على الرصيف في ثلوجة الصبح والضـ ـباب، وعسلي بين يدي. فإذا بها آتية، تمرّ بي، وعلى وجهها كـ ـل حلمنا، لم ينتقص برد الصبح من دفئه، جلست على الأريكة، انحنت على كتاب دينها تقرأ ورد الصبح، والصليب الـ ـذهبي متدل بما انحنت.. ذلك كان، والآن..؟!

القطار خلاَّني على الرصيف ومضى، والرصيف مزدحم بالخلق، لكنه موحش منها، أفتّش عنها والخراب يملأ الفراغات. يا ليتني كنت كلمتها، يا ليتها كانت كلمتني. آه يا ربي. خلاص. انقضى الوقت بمخاوفه والنكوص.

في آخر سفرة إلى قريتي ثقل قلبي حتى أوشك أن يكون فيه حزن.

أخذت القطار عائدًا. القطار قدري، والترحّل فيه دأبي. رجع أصداء رطم العجلات للقضبان حزينا، هل أبكي؟ ما عاد هذا يليق بي، لقد كبرت.

٢٤/ ١٢/ ١٩٨٨

صباح عيد

بسم الله الرحمن الرحيم، ولا إله إلاّ الله، والحمد لله، الإسلام شرعته العلن، وطقوسه الحفل، والجهر بالقراءة، والتكبير، والتأمين وراء الإمام بأعلى الأصوات. خَلّوا الآذان يجلجل من على كل المآذن، والخطب من على كل المنابر، تقتحم كل عزلة، تقضّ مضاجع النائمين، تفتضّ كل انفراد، حيث الشيطان رفيق المنفردين، والوساوس حليفة الأجساد المحبوسة في الغرف، المبلولة بالعرق. اخرجوا. اغتسلوا. واتخذوا أحسن جلابيبكم، وتعمَّموا، واقصدوا موائل الجمع، ومواطن الاجتماع، حيث تقام الفرائض والفرح بها حيث تؤدى جماعة.

وفي المواسم أطبخ لحمًا يا سيدي..! عكّر دسوت الطبيخ بالمرق المزين بعيون الدسم. وسِّع على عيالك، وعلى جارك الفقير. واستقبل ضيفك، وأنفق من مالك الحلال. اشتر فاكهة وحلوى وتمرا، وفَرِّقه في الناس، واعط عن سعة يد. وهو إذ يبذر النُّقل طوّح يديه يمينا وشمالا من مرقده. رمقته زوجته دهشة، ثم خفضت عينيها حذرة، لكن الرجل تنبَّه لها، عرف موقفها، وعيناها عليه. حدجها ببصره، وهتف أن:

. يا امرأة..!

وقفت عمَّا في يدها، سمعه منصتة، مطيعة مجاوبة. وهو قال لها:

. يا امرأة.. غطّني..!

وهي تذكّره باللّحاف ثرثر معها عن رمضان: اليـ ـوم آخر الصيام، وبعد نحن في شوال، شهر العيد، الغُرَّة منه عيد الفطر، كل سنة وأنت طيبة. شريت كل شيء لك يجعل العيد وعلى العيال سعيدا: خلقانً ـا وطعامً ـا، وعمّ ـرت جيـ ـوبهم بالمضاييع..! ألا يجمل بك أن تحمـ ـدي الله علـ ـى إحسـ ـانه؟ سألها وأجابته قائلة له:

. ستر الله عليك كما أنت سترنا وعزّنا...!

قال لها:

. أحكمي الغطاء عليّ يا امرأتي، فإن العيد غدًا..!

وأول علامة لقدم علمتها قدمه على الندى المحتـ ـوم بإحكام ينام تحته التراب على الطريق لمسجد الجامع.

يمشي مختالا في جلبابه الكشميري، تحتـ ـه قفـ ـاطين الشاهي والصداري، متحزّما بحزام الحرير وعلـ ـى أكتافـ ـه العباءة من الجوخ، وينصع جبينه تحت العمامـ ـة البيضـ ـاء،

وعيناه منكسرتان بالتقوى، وشفتاه مشغولتان بالتسابيح يرنِّمها سقوط حبات المسبحة واحدة على الأخرى، مُوَقّعة على إيقاع عصاه يضرب بها الأرض ضربًا رفيقًا..

يقترب منه رجل عليه جلباب نظيف، وتقية مغسولة، وتحتها جبين مقطّ ب، والعص ا تخ بط الأرض خبط ات غضاب. بعد أن تبادلا صباح الخير، وكل عام وأنت طي ب، قال الرجل ذو التقية للشيخ المعمّم:

إني بكّرت بالسروح إلى الحقول، فوج دت الترع ة جافة كقعر الكفّ..!

ردّ عليه ذو العمامة:

. أتسرح مُبكرا إلى الحقول يوم العيد؟

قال له ذو التقية:

. نمت مشغولا بالزروع العطاش..!

غضب المعمّم وقال له:

. أيشغلك عن العيد عطش الزرع؟ وصبح الاحتفال! فأنَّى تؤفكون؟!

قال له الرجل ذو التقية:

. صدق الله العظيم.. أي نعم..!

ثم جلسا متجاورين على الحصير، في رواء المسجد، بين صفوف من مئات المصلين، يكبّران معهم ويحمدان، لكن في كل قلب ما يشغله..

الشيخ ذو العمامة مجذوب للترتيل العـالي، يتمايـل مغمض العينين، يعجبه صوته، وصوت الجمع بطانة تبـدي غناءه، لكن ضربا من الانشغال وراء الإنشاد، وإهمال الشـدّ على المقاطع، ونسيان وراء شرود البال، وحول العيون. يهزّ رأسه صخبًا وغضبًا، يزمجر بالكلمات حتى يـوقظ الهمـم ويسحب العزم في جذبات الرحمن، في الغناء العظيم، حتـى صعد الخطيب المنبر.

انصرفا: المعمم وذو التقية، أولهما يشغله أنـه مـا حصّل موعظة نافعة من خطبة العيد؛ يا أسفا لانشغال الناس بالزرع العطشان وأخذه معهم في ذلك.

وهذا عطش الزرع يشـغل ذا التقيـة يمضـيان لا يتبادلات حديثًا حتى زارا المقبرة وآبا يسلمان علـى النـاس بالعيد. وانتهيا إلى مضيفة الشيخ المعمم. أمر هذا الشيخ بأن تحمل له صينية حافلة بالكعك والبسكوت والغريبة والنقل من

أفضال الله على العبد في عيده. وقف منتصبًا تيّاها في ثياب ه يلوّح بيديه، يقول للناس:

. أقبلوا على طعامكم يا ضيوفي في يوم عيدنا!

الناس يقبلون مترددين في الأك ل وزاه دين ف ي الحديث؛ فإنهم مشغولون عن العيد بجفاف الترعة.

حتى إذا صاح واحد يجري ف ي الطري ق، يص ل صياحه لهم من شبابيك المضيفة:

. المياه ملأت الترعة..!

أفرغت الكلمة المضيفة من ال زوار، وبع د زي اط المضيف وضيوفه بقي صمته وبقايا الأكل عل ى الص ينية، جلس على المصطبة يعايش السكون، حتى إذا أطلَّت امرأت ه من باب المضيفة، خلع عمامته وناولها لامرأته، ث م خل ع العباءة والجلباب وقال وصوته محتبس:

. أهكذا يكون الأمر في صباح عيد؟!

١٣/ ٤/ ٨٩

الكرم الريفي

هما ولدا عمي: محمد ومحمود. نقعد في مصـ ـر، لا نترك أسلاك الهاتف تبرد من حرارة عواطفنا إلا واتصـ ـلنا ببعضنا مرة أخرى: كيف الحال؟ والعيال؟ لم أرك من زمان؟ وأضع المسماع وأشرد نواحي بلدنا وسنوات اليفاعة. كـ ـان أبوهما يعزّني معزَّة ابنه الكبير، وإذ يراني مقبلا يقوم مسلّمًا مرحبا مهللاً بصوت يفيض فرحة، ويجتمـ ـع الن ـاس علـ ـيّ وعليه، وأجلس إليهم، ويجلس إلينا محمد ومحمـ ـود، ونحـ ـن فرحانون باجتماع الأهل والأحباب فـ ـي الباحـ ـة المـ ـؤطرة بالدور. يا لنعمة الانسجام التام الذي يشمل الريف وناسـ ـه..! يتنادون من على الأبواب، يضحكون برفق، ويتشاتمون فـ ـي المزاح برفق، ويخرجون بطعـ ـامهم إلـ ـى أمـ ـام دورهـ ـم، ويتعازمون بحرارة، ويثقلون بالعزم على الضيف الغريـ ـب، ويسرف هذا في التأبي، فيحزنون.

لقد مات عمي، وجرحني بموته، وباع ولداه منزلهما وحزنت لذلك، والجرح البالغ بقي رابطي بالحتَّة قـ ـدام بـ ـاب بيته. أرامق البيت وسكانه الغُرب، وأمشي وفي قلبي يبقـ ـى

المطرح والدور المجاورة، وولداه اللذان يعملان في القاهرة، لا أترك أسلاك الهاتف تبرد من لهفتي عليهما.

نلتقي في البلدان كل آن، نفرح باللقاء، ونتعانق، ونضحك من كل قلوبنا، ونرتدي الملابس الريفية، ونتيه بأزيائنا وباحتفال الناس بنا. ياسلام على الصلة التي تبقى تصلك بالأرض، تصلك بأصولك الريفية لا تنقطع، نذروح هناك نغتسل من الملالة القاهرية، من كرّ الأيام وشبه الأيام ببعضها. ثم نعود ريانين بالريف، شبعانين، اغتذت أرواحنا، فنفيض في ثرثرة على أسلاك الهاتف، ثم لا نلبث إلا أن نشتاق إلى السفر مرة أخرى.

لماذا يسافر كل واحد منا بنفسه، لماذا يسافر كلٌّ منفردا؟ لماذا لا نسافر جمعًا؟ تقابلنا في باب الحديد، وقد أخذنا العزم على بدء المتعة بزيارة البلد في قلب القاهرة نفسها، تقابلنا، وضحكت لما رأيتهما يلبسان الجلابيب البلدية: أتتعجلان بارتداء الزي؟ ضحكا من كلامي وانتفخا وطالت قامتاهما تيهًا، وجلسنا في القطار نثرثر على متعتنا المرتقبة: نجلس في الباحة، ويلتمّ علينا الناس، فلان وفلان وفلان، كل مشوق ليسمع منك وكل مشوق ليحكي لك، وكل مصرٌّ على

أن يقربك، يحلفون عليك أن تأكل عندهم ويصـ ـرّون علـ ـى حلفانهم، والواحد يتأبّى وكلما اشتدت العزيمة اشتد الواحد في تأبّيه، حتى ينكف الواحد منهم، ينكسـ ـر بمـ ـا لـ ـم تسـ ـتجب عزيمته.

رويدا رويدا يفتر حديثنا، ويبدأ الواحد منـ ـا يتقلّـ ـق، وتزاحم الكآبة مشاعر الفرح، نضحك هنا وهنـ ـاك، نغالـ ـب كآبتنا، لكن لا سبيل، فإن في القلب ثقلا من ناحية الحقيقة. إن الواحد ضيف متعلق برغائب مضيفه، لو زفر تركت أنفاسـ ـه بصمات على زجاج روحنا المصقول فيتغبّش. لكننا نتـ ـذكر الحمية والحماسة، نشدّ الذكريات على إعتام أرواحنا، حتـ ـى وصلنا إلى طنطا.

نزلنا إلى المدينة، أهي بالغة الروعة أم نحن نضيف عليها من فرحنا. هذا غاية نزهتنا. زيارة طنطا أيام كنا فـ ـي البلد، ومولد السيد البدوي والحلـ ـوى وغـ ـداء مـ ـن الفـ ـول والطعمية، فإذا محمد الأخ الكبير يقول:

ـ لنأكل لقمة هنا قبل أن نذهب إلى البلد..!

شدهت لكلامه، واستعجبت! ثم استيقظ فيّ نوع مـ ـن المحاذير، فسألته مكتئبًا لرده المتوقَّع، قلت له.

ـ لماذا نأكل؟ وهم يقدّمون لنا فـ ـي البلـ ـد الطعـ ـام، ويجزلونه، ويعزمون علينا أثقل العزائم؟

فتكلم محمد ومحمود يبتسم موافقا:

ـ نحن نأكل هنا؛ لا ننزل على الناس بجوعنا، إنهم يعزمون علينا، ولا نجد نحن مناصًا من التأبي، ويعزمـ ـون علينا بطريقة تضخّم نيَّة التأبي، فحتى إذا بلـ ـغ تأبّيـ ـنا ذراه حزن الرجل وانصرف!

استيقظت في نفسي غصّة قديمة، غصة غالبتها لتبقى سكتى على الريف موطّاة.

قلت له:

ـ ماذا لو أكلنا؟

قال ابن عمي:

ـ العزومة والتأبي، فأين المخرج؟

١٤/ ٤/ ١٩٨٩

حنان الأرض

تلك هي جملة ثرثرة العجوز عمتي مع بائع جوَّاب. رأته من مجلسها قدام بابها يمشي يحمل قفصين مربوطين، يمر الرباط عبر كتفه فيحملهما: واحدا على صدره والآخر على ظهره، والقفصان مليئان ببطات يصل صياؤها كبطاقة لنداء الرجل على بضاعته، والرجل حزين يتبدى ذلك في خطوط ظهره، ويرن في شدوه بحسن بطّاته.

شغلها الرجل عما في رأسها وحيرتها: أتُبقي على القراريط التي تعاقدت عليها؟ أم تفسخ العقد وبالمال تبني دارا جديدة؟

زعقت عمتي عليه وجاء به الزعيق، قعد قدامها وبينهما القفصان يُخْرِجُ منهما بطات شاهدا على جمال رأيه في البط العجيب. راقها بَطُّه فانتقت خمس فرائد ثم بدأت المساومة على الصفقة. ثم عَنفت المساومة حتى أوشك الرجل أن يغضب ويمشي وأوشكت هي أن تغضب وتترك له بطاتة. لكن الفصال ظاهِره الغضب وباطنُهُ التراضي، فمالت ومال حتى استقرا على الثمن المعلوم ودفعت له، والبط صار بطها والمال صار حلاله.

وبعدما استغرقت المساومة الشديدة شـ وقهما للكـ ـلام نظر البائع إلى عمتي فرأى في عينيها حنانا لـ ـه، وعمتـ ـي وجدت في عيني الرجل أن طراوة نسمة العصرية أمام بابها تريحه، فعزمت عليه بالشاي. قال: " نعم.. يا سلام يا ستي.. طيب.. نشرب عندك الشاي! " على إيقاع الرشفات المتباعدة، وطعمها السكري سأل الرجل عمتي: " يا خالـ ـة.. لمـ ـاذا لا تبنين دارا جديدة؟ يا خالة دار حسنة!" قالت له وقد شـ ـردت من الكلام إلى الكلام الآخر، وتـ ـذكرت، واكتسـ ـى وجههـ ـا بسحب من الهم: " آه يا ولدي. كم اشتقت لدار جديدة، لكنـ ـا اشترينا سبعة قراريط، فوضعنا المال في الأرض يا خسارة. وأفكر أن أرجع، أفسخ العقد وأستردّ مالي، وابتني بهـ ـا دارا جديدة..! آه يا ولدي كم أشتاق لذلك..! " لكن بائع البط فزع وصرخ، ونهنه، وانحدرت الدموع من عينيه وبكى بحرقـ ـة. قال عبر شهقاته: " يا خالة.. لا تلغي عقـ ـدا اشـ ـتريت بـ ـه أرضًا.. لا ترجعي في كلمتك.. ضمي إليك الأرض قيراطـ ـا بعد قيراط.. آه يا خالة.. آه من حنان الأرض.. إنهـ ـا أكثـ ـر حنانًا من الأم والأب.. يا سلام.. افرحي باتساع أرضك شبرا بعد شبر.. إنك بذلك تفسحين نصيبك من الـ ـدنيا.. وتنـ ـالين رحمة رب السموات..! "

شدهت عمتي من شدة حرقة الرجل حتى ما تبللها إلا الدموع. قالت له: " آه يا ولدي.. ثم ماذا؟! " قال لها وخطان من الدموع على خديه: " اسمعي خبري يا خالـ ـه.. بـ ـالحق أقوله.. والله شهيد: إنا ورثنا من أبينا . أنا وأخي . أرضً ـا ودارًا، ثم تراضيت أنا وهو . قصرًا للشر . على أن أترك له نصيبي من الأرض والدار مقابل مال.. آه.. ثم إن ـي لـ م أشتر أرضا بمالي لكني بنيت دارا جديدة فسيحة الحج ـرات، دارا بلا حقل ولا بهيمة. فاستيقظت من السـ كرة علـ ـى دار مغلقة على وحدتي.. آه.. وأطوف ببطاتي وفراريج ـي ثـ م أرجع إلى بيت تصرّ فيه الجنادب وأسـ مع صـ ـريرها فـ ـي صمته الأسيف. أغلق عليّ بابي، وأنا أفكر في الأض.. هي كانت أكثر حنانا عليّ من أمي وأبي.. آه..! " العمـ ـة رأتـ ـه يمضي عنها بقفصيه. تأملت خطـ ـوط ظهـ ـره.. حزينـ ـة.. وتأملت أثر حديثه في قلبها، فوجدته حزينا.. نعـ م.. هكـ ذا يثيب الله بالموعظة الحسنة بقدر ما أكرم الواحد ضيفه.

وهكذا هي جملة ثرثرة عمتي مع بائع جوابّ.

١٩٨٩

عن المقام

كلما مررت ببيوت " الإنشا " حزنت، وكذلك المسجد الذي ابتنوه لصلواتهم، وتذكرت سالم السوداني. كان حسن الوجه حسن السمت نظيف الثوب، نظيف العبارة خفيض الصوت، لكن ياه.. يا الله حين يكون مع رفقاء الجوزة، يسرف، ويشرب البوظة، يفلت خلقه من حسن السيطرة، تبيض عيناه وأسنانه، يلقي بتقيته على الأرض ويصرخ، يهرف بأشنع الصفات. لكنني لم أره حال خروجه، بقيت صورته في ذاكرتي محفوظة في أحسن إطار. يذكره أهل قريتي ويضحكون على أحواله، فقد كان طوافا بالبلاد ينشد رفقته في الليالي، وفي الصبح تتحرك عن سهرته حزمة من الأخبار وملء الأفواه من شتائمه. من الذي أتى به ليسكن "الإنشا"؟ أهو لعمله في معمل الألبان التابع لتفتيش وزارة الزراعة مُنح مسكنا في العزبة؟ أم أنه جاء خصيصاً لكي يموت الناس عليه ضحكا، ينضاف لضحكهم على خلق "الإنشا"؟ بيوتها مقببة سقوفها وهي صغار وقميئة، يحتملها الساكنون وسخريات أهل قريتنا بهم، يلوذون بدورهم الواقعة مكببة تلو الترعة الكائنة في الجهة القبلية من بلادنا

وينصرفون لأمور معاشهم، إنهم أنف ار جمع تهم ض رورة العمل، بلا قرابة ولا عصبة ولكن ودّ الجيرة، يحل ويرح ل القليل ويبقى الأكثرون أبدًا. وقد كان سالم الس وداني رج لاً صاحب ذوق في السُّمر من النساء، لقط واحدة من هنا وتلك من هناك، وأخرى من بلدنا ملها فطلقها كما طلق الأخري ات وبقيت هذه عجوزًا تدخّن بشراهة وتسعل، أمر على بي وت "الإنشا" في سكتي إلى غيطي بحذاء الترعة، والمسجد الـ ذي ابتنوه لصلواتهم من الأسمنت المسلح عل ى ش اطئهم أراه. جامع كبير معلق على سقفه مكبر صوت وهذا نفيره. وجنب محل الصلاة مضخة الماء تجمّع البن ات ح لاوة الس كر. حوشيات من " الإنشا " بهيات في الجلابيب الملونة. أح وش نظري عنهن والغنج الرائق يجلجل في الضحكات، ترن ف ي الجدران الصلدة والسقوف. كل البي وت بني ت وزوّقوه ا بالبياض، وفي واحد منها أرملة سالم السوداني.

كان ذلك منذ زمن مَرّ بما كان فيه. كان ت قريتن ا تطوف بها أعداد من الشحاذين، يطلون على أهل الدار م ن بابهم المفتوح في الدور الريفية، أو يخبطون الباب الخش بي فتخرج لهم الأرغفة أو حفانُ من الدقيق أو الحبوب. كان ذلك

منذ زمن فات، والبيوت ارتفعت دورين أو ثلاثة ولها أبواب حديدية، وتكسل المرأة عن النزول لتلبية سائل.. وماذا تعطيه؟ إن زراعة العنب كنست الدار من الأشياء، تبقَّى لهم الفلوس يشترون الأرغفة من فرن القرية. هجر الشحاذون القرية والمجاذيب وذوو الأحوال، وفي المساء بقي المرناة يحيي الليالي.

وعين "الإنشا" على قريتنا: الجامع ومقام سيدي سليم. جامعهم يلحق يرد بالآذان بالصوت المكبر، وآه لو كان عندهم شيخ لابتنوا له مقامًا ورفعوا العمدان وأرسوا الطوبات بالفن. فتحوا عزبتهم للشحاذين وللمجاذيب وذوي الأموال، وأقاموا في الليل الأذكار، في الحتة التي هي ما بين مضخة الماء والمسجد، ما بين ضحكات البنات المجلجلة وجلجلة آمين وراء الإمام. وأولاد بلدنا يقصدونهم، يقفون على شاطئنا من الترعة ويتفرجون ويتندرون على هز القدود وسوء المديح، ويضحكون على زغاريد نسائهم ثم ينصرفون والذكر لا زال في الأوج.

إن سالم السوداني كان تزوّج في آخر أيامه بنتًا لم تُعلّم الأنوثة عليها علامة، بعد طفلة، أكرمها وبرّ بها فنمت

عنده، ثم مات عنها وهي صغيرة، صرخت أقبل أهل "الإنشا" مفزوعين وحزنوا على الرجل ودفنوه عندهم، وبقيت ذكـ راه وتوقيرهم للأرملة. وكبرت هذه وصارت امرأة سـ وية فـ ي وجهها حسن وفي جسمها من تفاصيل سبحان الذي صـ ور. حتى أهلَّ عليها رجل له قدر من السن والعقل والمهابة بـ ين أهل " الإنشا " قال لها إنه بالأمس جاءني سالم السوداني في منامي تحت بيارق وحوله زحام، سألته أين يقصد؟ قال لـ ي هنا.. وهنا مقامي. وأشار على الحتـ ة مـ ا بـ ين المسـ جد والمضخة..

وفتحت الأرملة بابها للمجاذيـ ب وذوي الأحـ وال، أكرمتهم وأقامت لهم الأذكار، يـ أتي أولاد بلـ دنا ينظـ رون وينصرفون ضاحكين، وهم يقـ رءون الفـ واتيح علـ ى روح المرحوم سالم السوداني. حتى نزل " الإنشـ ا " شـ اب، فـ ي الناس نادرة، زينته، وكحل عينيه، والمسك يفوح من ثيابـ ه. عليه جلباب أبيض سابغ من رقائق القطن وقدماه نظيفتان في " الشاروخ " السعودي، وعلى رأسه شال هفهاف يستر وجهه عن الناظرين. فإذا أسفر رحبت به الأرملة وقالت له: تعـ ال يا عمي. وجلس على حصير مصنوع مـ ن لـ دائن ملونـ ة،

وتحدث وهي جالسة بين يديه، وعظها حتى عضّتها اللوعـ ـة وفاضت الدموع من عينيها ونهنهت العبرات. انكفأت عليـ ـه، دفنت وجهها في حجره متشبثة باليدين في الوركين حتى تبلل جلباب الشاب من دموع الأرملة، وهو يخفف اللوعة عنهـ ـا بالتربيت على ظهرها، ويبكي يتقطـ ـر مـ ـاؤه علـ ـى شـ ـعر الملتاعة.

اجتمع أهل " الإنشا " على الرجـ ـل عنـ ـد الأرملـ ـة، وبالليل أقاموا ذكرا في عين الحتة، وفي الآخر ودّعوه علـ ـى باب بيتها. وهو يبيت عندها، وفي الصباح قام مبكرا قصـ ـد مكان الذكر، نصب فيه طوبات، وأقام عليه رايـ ـة حمـ ـراء رفاعية، وكتب على لوح خشبي: هذا مقـ ـام سـ ـيدي سـ ـالم السوداني، وصاح في الناس سنبدأ الآن فـ ـي التبـ ـرع، فـ ـإذا اكتمل المال كان المقام.

شاع الخبر وزيد عليه وتقول المتقولـ ـون. وكـ ـل آن يمر بعض من أهل قريتي على نصـ ـب سـ ـالم السـ ـوداني. ضحكوا وفاض ضحكهم حتى وصل إلى واحد من مباحـ ـث المركز، شخر ونطر وقال: والله العظيم إن الأمـ ـور زيـ ـن، يبيت النطع في بيت الأرملة ويقيم طوبات عليها راية ويجمع

التبرعات! وهو من أي البلاد جاء؟ أفّاق يدور بشرّه! وثاني يوم أرسل العربات نصف النق ل الزرق اء وكبس وا عل ى "الإنشا" . وحينما ظفروا بالشاب ض ربوه أبش ع ض رب وصحبوه ملوثا بالوحل والدم والدموع. وأزال النصب وكسر اللوح ومزق الراية بيديه، ثم غابوا به وراء الأفق.

كلما مررت ببيوت " الإنشا " حزنت، والمسجد الذي ابتنوه لصلواتهم بالأسمنت المسلح. ها.. انقض ى س امرهم، وما كان يضرُّ لو بني مقام لسالم السوداني؟ لكانت الأح وال أصلح ربما. ومن الذي ينبئني أن حال سيدي سليم .ش يخ بلدنا وله مقام .خير من حال الأسود؟ ربما كان يفرط ف ي الجوزة وقرعات البوظة إفراطًا شديدًا، لك ن الش رطة ل م يكونوا على أيامه أقوياء وقليلي الحياء!

١٩٩٠

الأعرج

مشى يطلع في زحام الحارات، وهو يكاد يضحك من بلاهة التساؤل في أعين الناس، يريد أن يخطب فيهم: " ساقي ليست معطوبة، ولا طالني المرض، إنما أنا حذّاء..! " ويضحك دونما أن تتحرك بضحكه الشفتان، يظل يرنّ الضحك في جوفه حتى تتلون به الوجنتان. ظل يمشي يطلع في زحام الحارات حتى خلص إلى ميدان العتبة، إلى محطة السيارات الحوافل.

نظر فرأى الزحام، يراه كل يوم لكن اليوم الخميس، استكثر على نفسه الحشر وثقل الخلق على جرحه القليل، فأطلق لنفسه العنان. إنه سيتمشى، من الذي يستعجل عودته للبيت وغدا يوم راحته؟! ضحك. ثم واصل سيره ضاحكا من الناس الذين يرمقونه.

شارع ٢٦ يوليو ظل يأخذ به أخذًا شديدا حتى النهر وقد ضاقت منه الأنفاس، لكنه راق جنب بحر النيل، فرح به وركن هناك هونًا ما. ظل هناك حتى غاب نور النهار والتمعت في جوف المساء أضواء الشوارع. إذن قام مهرجان النور، اختفى القبح وصحا الحلم وبانت البنت من على البعد

مثل قمر، وجهها معمول والخاطر رائق، وأمها معها. مشى بحذائهما يوفق خطوه مع خطوهما. ضحك لهما، فأقرأته الأم ألف مساء. ابرنشق، ظل يتكلم كثيرا ويتقافز على ساقه القصيرة ويطلع. وماذا في ذلك؟ إن جيبه ملآن بما قبض من أجر الجمعة، والنقود تبعث الحول في جسمه. أدركوا موقف الحوافل وأن لكل منهما أن يركب في اتجاهه. قال لهما ملهوفًا: هل تأتيان يوم الخميس؟ نعم! مشى وهو مسرور بموعده. بكّر من صبحه إلى الورشة. يا سلام على الشغل! إنه مزاج الرائقين، يسوي الجلدة من أطرافها بسكين مرهفة الحد، ثم يدق الأطراف ويغني، ويقرّع الزميل الذي أخذ الشاكوش ويضحك، ثم إذا به يقترب منه الأسطى الكبير. جرّ كرسيه وجلس إلى جنبه وسأل عن الحال، الولد ارتجف خفيفًا ثم رويدا رويدا استعاد ثباته ثم غنى مجاوبًا أن الحال كالورد مزروع في القصاري. الأسطى الكبير ابتسم وقام، الولد استعجب أن الأسطى لم يشر إلى بنته بكلمة وهو كذلك لم يسأل عنها. آه. هكذا قطّرت قطرة سوداء على علاقته بالأسطى الكبير وهو الذي جلبه من بيته وعلمه الصنعة، ثم إن السنّة أن يتزوج صبي الصنعة من ابنة الأسطى. البنت

حلوة لكن ليست مثل التي ولدت من أنوار المساء.. مساء الخميس.. آه لو كبرت النقطة حتى سوّدت ما بينهما، بينه وبين الأسطى. دقّ بالشاكوش على الجلد، وغناؤه أصبح حزيناً.

ثم إنه كان يوم الخميس، جاء المعلم بالأجور فوزّعت عليهم، قبض النقود ومشى يطلع في الحارات المزدحمة، لا يبالي بنظرات الناس، ولا يبالي بالسيارات الحوافل، تذكر شارع ٢٦ يوليو يأخذه إلى النهر، وقف يرقب الدنيا حتى لمعت أضواء الشوارع، إذ ذاك جاءت البنت وفي صحبتها أمها، مشى يحكي ويحكي، والبنت في وجهها الكحل جمال المساء، تتلعب في عينيها أعجب التصاوير، ينظر فيهما ويستعجب، يستخفه ذلك للحكي فيحكي، والمرأة راضية مستقرة، تترك للشابين كيف يصوغان عواطفهما، حتى سألته البنت: " قل لي يا أخي ماذا بساقك، لماذا تعرج؟ " ضحك الفتى وأغرق في الضحك، قال لها: "ليس بساقي علة ولا مرض، إنما هي صنعتنا يا بنتي! " فقالت له البنت: " وماذا في صناعتكم، صناعة الحذائين؟! " فقال لها الولد: " إننا نستغني عن السندان، وندق على سيقاننا، رُكبنا موطأة للدق،

نظل ندق عمرنا حتى تقصر الساق اليمنى عن الساق اليسرى، هكذا نعرج يا بنتي. كل الحذائين هكذا! "

نظر إليها فإذا وجهها مصفرّ عليه دهشة تكاد تصل إلى الرعب.. سقط الضحك من فمه، وتأملها، وعلى ذات فجأة جاءت الحافلة فقفزت البنت راكبة فيها، ولحقت بها أمها دون أن يتركا له موعدًا.بقي واقفًا جامدًا، وبقيت له نظرة الأم مشفقة وراثية.. وانطلقت بهم الحافلة بعيدا..

٥/ ٤/ ١٩٩٠

مذاكرة

وقفت المدرّسة قدام البنات: بيدها المؤشر وبالأخرى قطعة من الطباشير. وإذ بدأت ابتدرت بنات فرقتها، أن: "... يا بناتي انتبهن لكلماتي، إنها من الحياة وإلى الحياة ترجع..!" عيناها محلقتان بعيدا. والبنتان اللتان تجلسان على المقعـ دين في أول الصف تنظران للمدرسة، تريدان أن تصيدا نظراتها، أن تحتوشاها، وتحوزا الاهتمام، ومـ ن غـ ـد تبـ ـدآن الكَـ رّة الأخرى.

هذا الصبح خرجتا من بيتهما، تقابلتـ ـا واصـ ـطحبتا كعادتهما، عبرتا الجسر إلى الجزيـ ـرة، هنـ ـاك مدرسـ ـتهما، تخفان السير على كورنيش النيل في جو مشمس بارد، لكنـ ـه طلق ورائق، فهل يعنّ لهما أن تراجعا موادهما..؟ أخرجتـ ـا الكتاب، إنه كتابها..! تواطأتا وبدأتا.

استفتحت واحدتهما الدرس وقرأت: ".. وإذا يتدفق..! " وهما ماشيتان تترقصان على نغمة مرحة خفيفة في غلائل الصبح، والأخرى تدعك بطنها بيدها اليسرى بينـ ـا يمناهـ ـا مشبوكة في شمال صاحبتها، وتكمل لها قراءتها: ".. وهناك ترقص.. الحيوانات المنوية.. ترقص وترقص.. تشبك تاتا..

تشيك تاتا..! " وتترقص البنتان على جمل م ن الموس يقى الشرسة، فالشارع خال يترك المجال لانطلاقهما بلا ح دود، فإذا الواحدة قالت للأخرى من البنتين: " هسّ..! " ورفع ت كفيها، ثم استدارت تمشي متعاجبة تتثن ى، حرك ة الكتف ين تساوق حركة الردفين، والرأسان ميزان، وكلماتها نغ م: ".. طم... طم... والبويضة تنزل ف ي ج لال.. تتمش ى ف ي الجوف.. طم... طم...! "

لحقت الثانية بصاحبتها، تصيح: " إنها لحق ت بها جيوش من الحيوان.. " تؤطرها مشية صـ احبتها بـ الرقص حولها، فيختلط التثني العظ يم بفوض ى التخلّ ع المس تثار وتحكي: " كل مخلوق دقيق يدفع برأسه الإبريـ ة يحـ اول أن يلمس البويضة، يبحث فيها عن ثقب للاختراق..! " ثم شبكت يسراها في يمين صاحبتها، يقترب الرأسان أو يبتعدان ف ي إيقاع الذكر أو دورة الزار على مق اطع م ن الموس يقيين الشرقيين القدامى.. انتشيتا وبلغت بهما النشوة حدًا فاق ك ل حد.

صحا الشارع ودبت الأقدام والتفت ت الـ رءوس أو أطلت من النوافذ. وإذن ظهر الآن فريق من أولاد المدرس ة

المجاورة، رأوا نشوة البنتين فانتشوا بالعدوان، خفوا للّحـ ـاق، اقتربوا، وسخن أنفاسهم يلفح الرقبتين وجواذ ـب الصـ ـدغين وعيونهم تخترق.

ضاع اللحن مـ ـن البنتـ ـين، وضـ ـاعت الرقصـ ـات والتطوح على اللحن الشرقي القديم. أسرعتا فـ ـرارا. البنـ ـت أسرّت لصاحبتها تريد أن تؤثرهـ ـا بكلامهـ ـا: " إن الخليـ ـة الجنسية تسمح لواحد بالاختراق، بذلك تتحد ويكتمل معناهـ ـا، وتترك الباقين للفناء، للفناء، الحيوانات المنوية..! "

وهي تقول رشقت سبابتها في الهـ ـواء. قالـ ـت لهـ ـا صاحبتها همسًا: " إنها تصبح جليلة..! " ورفقت ببطنها مسحًا ولمسًا. لهثت أنفاس العيال بما غمض عليهم الهمـ ـس واليـ ـد تجري على البطن. يريدون أن ينزعوا الكتاب، لكن البنتـ ـين ضمتاه باليدين إلى الصدر، احتضنتا الكتاب، واصلتا القراءة: ".. وفي الرحم فرش لها وسادة من الشعيرات الدموية، نتوء يحملها في الجوف..! "

ظهرت المدرسة، الأسوار ولمة البنات هنـ ـاك. إذن تخلف جمع الأولاد، وقفوا وعيونهم علـ ـى أعقـ ـاب البنتـ ـين والزعيق: " إنهما حافظتان.. حفيظتان هما.. هما هكـ ـذا..! "

والبنتان تقاربان المدرسة، ثقل قلباهما، صار همسهما كئيبً ا: "إذا لم يحصل الدفق؟ " أجابتها: " تم وت البويض ة دونم ا رقص حولها ولا احتفال..! " تسربتا من بين البنات والتسار خصيصة سيرهما الحثيث: " إذن تنحل وسادة من الشعيرات الدموية..."! " تصعدان السلم ومعهما اللهاث والنّصب: " ينزل الدم.. فراش الدم.. ينزل الدم..! " ومن التعب ردّت: " يتقطر الدم.. يتقسط.. يتقسط الدم..! " وهما على باب فصلهما قالت آخر كلمة في الدرس: " في عادة موقوتة..! " فإذا المدرّس ة واقفة عالية الهامة مشرقة، بيدها المؤشر وبالأخرى قطع ة من الطباشير. وإذا بدأت ابتدرت بنات فرقتها أن: " إنن ي أعلمكن الحياة.. يا بناتي تعلمن عني الحياة..! " ترى غص ة البنتين، اصفرار الوجهين، ذبول العينين، أهذا أوانها؟ وطَأت لهما من نفسها يسرًا. تأملتهما. وقفت البنتان والص مت ران قالت المدرسة تسألهما: " أليس كذلك..؟ " ردت البنت همسًا: " حاضر يا سيدتي..؟ " والبنت الأخرى " طيب يا س يدتي.. طيب..؟ "

محكمة القطاط!

من شرفة بيتي العالي نظرت إلى قريتـ ـي، سـ ـقوف الدور،وأحطتُ بها حتى اسـ ـتقرت إلـ ـى التخـ ـوم تملـ ـؤني بالغموض. انصرفت نازلا. اليوم أول أيـ ـام عيـ ـد الفطـ ـر، قصدت بيت عمي، هو يكبرني بأعوام ثلاثة، تـ ـزول الكلفـ ـة ويبقى التوقير للسّن وللقرابة، وبدأنا الزيارات بالعمّـ ـة التـ ـي تعيش وحدها، مشينا نتقدم رفاقنا، وبدأنا ثرثرة هـ ـي حـ ـلاوة علاقتنا نستطعمها، ذراعانا مشبوكتان ورأسانا متقاربان. قال لي: " الواحد في مثل عمرينا لـ ـو تـ ـزوج يختـ ـار المـ ـرأة الوسط..! " قلت له: " أخ..! تلك تأتيك بفشلها، وفي صـ ـوتها النكد..! " سألني: " وإذن..! " قلت له: " إنها هي الصـ ـغيرة البيضاء، جُمّارة، قشدة لم تمتد إليها قبل إصبع..! " قـ ـال: " إنها تستبد بك..! " قلت له: " وأنا أناولها ما اسـ ـتطالت بـ ـه عليّ.. آه يا حلاوة.. وفي طبعي لين..! ".

وعند العمة تحلقنا حول صينية حافلة بأطايب العيـ ـد، وأنا لا زلت ملآنًا بنصري على عمي في دوارنـ ـا ووجهـ ـه عليه السحب: طفـ ـت أتأمـ ـل لوحـ ـات الحيطـ ـان والمرايـ ـا والكراسي الوثيرة والبساط. هتفت: " نحـ ـن نعـ ـيش أعوامًـ ـا

سعيدة و ١٩٩٠ هو أسعدها..! " وقال العم: " إن الفقر ترك الريف وراح إلى هناك يعسكر في حواري المدن...! " قلت: " إن بيوتنا بالأسمنت المسلح، منوّرة الردهات، لـ يس فيه ا أركان مظلمة تسكنها العفاريت..! " وبقي شغل الأسنان ف ي الحباث وواحدات الكعك تترك سـ كّرها علـ ى الشـ وارب، والواحد لا يسمع لهم حسًّا هؤلاء البعض من الناس، سكتوا، قال عمي: " إن حكايات تدور في البلد عـ ن الجـ نّ، وولـ د مسكين في الناحية الأخرى ركبه عفريتان، والولد يكلم الناس بلسانه وبصوته، وتجيء عليه أوقات يهرف بما لا يعرفه عنه الناس بغير صوته وغير لسانه، وعجز الطب عن مداواتـ ه، ذهبوا به لأهل العلم، أحرقوا أنف الولد حتى خرج العفريتان، وهما كانا طيبين، وأحدهما سكن في الدماغ والآخر سكن في القلب، وبعدما خرجا بكيا ورحلا إلى السعودية والولد لا زال حزينًا عليهما حنانًا لسكناهما جسده..! ".

وتكلم مهندس الزراعة، هو ابن عمي قال: " واثنـ ان باطشان ركبا واحدًا. صحبوه حتى راهب في كنيسة " أبـ ي جرج " وصف لهم ماءً لحموم الرجل وحجابًا، لـ م يخـ رج الاثنان الباطشان إلا بعد طول مجادلة..! " وقال ابن عمـ ي

مهندس الكهرباء: " يتكلمون؟! " تكلم خريج الأزهر ومدرس في المدارس الثانوية: " إنهم كلموا نبي الله داود..! " رد عليه مهندس الكهرباء قال: " كلكم يظن نفسه داودَ يكلمه الجان..! " وقال ابن عمي المدرس: " خذوا مثلا إمام الجامع. ركبه عفريت كافر صرفه عن الصلاة وارتياد الجامع..! " وعمتي صموتة وأصبحت شاحبة، أخذت عدة الشاي ومشت إلى المطبخ.

قلت لهم: " ما هو الكافر في عرفكم؟ أهم القبط؟ وفيهم معاون الزراعة والنحَّال والتجار وكلهم كانوا على صلاح. وتاجر العنب الذي ينزل عند عمي شهورا من كل عام! " قال عمي: " لهذا أشهد أمام الله أنه رجل صالح..! " قلت لهم: " ليسوا كفارًا، ولا اليهود، عندهم ربّ يخشونه. وكل واحد في الدنيا يتبع ملة مثل ملتنا..! " قال الكهربائي " حتى الشيوعيون يلتزمون في الأخلاق بمبادئ صارمة..! " قلت لهم: " لماذا لا تأتي مثل هذه الحكايات من الناس الأذكياء اللامعين..! " قال المدرس: " اسمعوا أحكي لكم خبرًا عجيبًا..! إنه في قريتنا خفير دوار في البلاد وله ولع بالمكاتب وأعشاش السلطة. تعرف على العسكري الموكول

بباب مدير الأمن.. تباسط معه فحكى له عن يوم م ن أي ام المدير؛ إذ جلس على العشاء ومعه امرأته وصبيّاه. أعط ى الرجل لابنه الكبير نصيبه من اللحم، قفزت القطة خطفت ه. ضحك الأب وثنّى على ابنه مرة أخرى بقطعة نطّت القط ة أطارتها من يده. " الولد في ثورت ه أمس ك بف ردة قبقاب ه وطيّرها خلف الحيوان الشرس، أصابها في عينها فصرخت: آه..! نطق بشري لا جدال.

اسمعوا، الخفير يحكي عن مدير الأم ن أن الرج ل بالرعب أوى إلى فراشه وفي حضنه ولداه وامرأته متعلق ة به. الغرفة مغلقة محكمة الظلمة، إذا بها تضيء كأنما طل ع فيها الفجر وامتلأت قططا. تموء كأنما اليوم ي وم القيام ة. والرجل وامرأته وولداه ق ائمون يك ادون ينشف ون هلعً ا. صاحت القطة الكبيرة وهي تصفق بيدها: " اسكتوا..! " ث م كلمت المدير بلسان عربي فصيح، " كيف تصيبون بنع الكم القطة في عينها وهي ملك كريم..؟ "

قال المدير: " إنها خطفت اللحم من يد الصبي م رة ومرة.. إنها ملك كريم.. لكنه قضاء وسبق! "

عفت القطة الكبيرة عنه وأخذت القطاط وانصرفت.

عمتي تفرغ الشاي في الأكواب فتخطئها. قصدت مهندس الزراعة ليعمل عملها. شربنا في صمت. ثم استأذنا. كل عام وأنت طيبة يا عمتي. وانصرفنا. مشينا أنا وعمي. ذراعانا متشابكتان ورأسانا لم يقتربا، ثم أهلّ علينا جماعة من البنات مزينات بالترتر على الثياب الجديدة والعيون والخدود. قاربت رأسي من رأس عمي. قلت: " أرأيت..؟ " قال لي: " اسكت..! " وسكت وعاد رأسي لمكانه، ثم تركت عمي عند داره ومشيت على داري، صعدت إلى الدور الرابع أطل من شرفتي.. الوقت أصيل وشمس المغارب تبرق على السقوف وقريتي تملأني غموضًا.

١/ ٥/ ١٩٩٠

من نوادر ذي الأطمار

مشى الولد على آثار أبيه، والنهار لا زال متحجبً ا خلف ستائر ليلية شفيفة، والأب يقصد دار صاحبه في الرحلة إلى سوق طنطا. الولد يسأل أباه: كيف تصحب هذا الرج ل النتن مثل جيفة في مشوارك للسوق " قال الرجل لابنه: " إن هو إلا ابن أختي، فكيف أنكر قرابته؟ " قال الولد لأبيه: " إن أمه ليست بأختك.. " ردّ الأب: " إنها بنت عمي، هي مذ ي بمنزلة الأخت! " قال الابن لأبيه: " إذ ه يل بس جلباب ه ولا يسلمه للغسل أبدًا حتى يتمزق ويسقط من على جسده أطمارًا " رد الأب: " إنه بلاء خصّ الله به عبدا من عباده! ".

وهما في هذا انفتح الباب وخرج الرجل في أطماره، لكن وجهه يسبق النهار ويشرق في قلب عبشة الفجر، استأذن الخال وابن أخته من ابنهما ومشيا طالعين على سوق طنطا. طلعت الشمس عليهما وهما في وسط زحام الخلق م ن ك ل الأمم. كلّ تاجر، وكل حافظته ممتلئة، ونيته على الشراء أو على البيع حاضرة في شجار الفصال والمساومة.

الرجل ذو الأطمار يضحك، يأخذ دوره في الع راك على المكسب ويضحك حتى إذا نزل به رجل يلومه على بيع

له في جاموسة عزيز لبنها. قال له الرجل ذو الأطمار: " إني كنت قلت لك لا تبع رضيعها، إنها لا تجود بلبنها إلا على فصيلها! " قال له الرجل " نعم . أي نعم. أنت قلت لي ذلك وأنا بعت فصيلها، وأنا المخطئ! " وخرجا من السوق: ذو الأطمار وخاله، لم يصبهما حظ الشراء.

فإذا بالخال يصرخ ويداه تتحسسان جيبه، صارخ ملتاعًا: " إنني فقدت حافظة نقودي آه يا عالم..! آه يا مالي..! " فإذا بذي الأطمار يفزع على فزعة خاله ويقول له: " على مهلك يا خالي، اصبر يا خالي إن الله مع الصابرين! " ثم بدأ يرفع صوته صائحا " يا ناس يا خلق الله.. يا من تعلمون بحالي.. ويا من لا تعلمون به.. إن حافظة نقودنا ضاعت، الآن هنا.. ردوها عليّ يا خلق الله..! " فإذا ما انتهى من كلمته طارت حافظة نقود خاله في الهواء، تُحَلِّقُ ثم تقع على الأرض تحت أقدامهما والخال يكاد يفقد وعيه من فرط دهشته.

قال الرجل لابن أخته ذي الأطمار: " قل لي يا ابن أختي، ما سرّك وما علاقتك وما هي الكرامة التي سخرتها

لاسترداد حافظة نقودي؟ " قال ذو الأطمار لخاله: إن لـ ذلك حكاية عجيبة أحكيها لك في طريق عودتنا إلى بلدنا! "

ذلك أنه مرة كان في سوق طنطا مثل عادته كل يوم اثنين، إذ باع جملاً وقبض ثمنه ألفًا، صرّ النقود في منديل ـه وخبأه في طيات هدومه، وخرج من السـ وق، لكنـ ه يحـ سّ بعيون تبرق تتبعه ولا تخطئه من بين عيون زحام الخلـ ق، إنها عيون السرّاق تحوطه، يميل في طريقه فيميلون معـ ه، يعتدل على السكة يعتدلون معه، قال آه يـ ا أولاد.. سيضـ يع مني ثمن الجمل.

مال على رجل يبيع شطائر الجبن واللحم في عـ يش أبيض طويل ملفوف، قال ذو الأطمار للبـ ائع: " يـ ا عمـ ي السارق في أعقابي، ومعي ألف، هي في ذمتك حتى آتيك من غد..! " قال الرجل: " إنني إن مت، مت وفي ذمتي لك نقود أتعذب بها عند الله..! " قال ذو الأطمـ ار للرجـ ل البـ ائع: " سترك الله.. فقط اعطني يا سيدي رغيفًا، وشقه لي بسكينك، وتوارَ حتى لا يراك الناس وأنت تضع الألـ ف فـ ي قلـ ب الرغيف، ولفه لي في ورقة واعطه لي..! ".

ثم مشيت والرجل السارق يده تتحسسني، تجسني، تقلب فيّ وتبحث في هدمي حتى أنه خلع تقيتي ونظر فيها، ولما لم يجد فيها شيئا وضعها على رأسي، وركبت القطار وهو ورائي، ووصلت إلى قريتي والرجل لا يفلتني حتى شارفت داري. قلت للرجل السارق: " هذه داري هل تتفضل معنا؟ " فإذا بالرجل اللص يمسك بيدي ويقول لي: الله يكرمك.. ويستر عرضك.. أنا اشتريتك من زملائي بمائتين حتى تخلص لي سرقتك، وأنا أستعوض الله في نقودي.. فقط أريد أن تقول لي أين خبأت مالك.. وإذا أطلعتني على سرّك لك عندي كرامة.. إذا ضاع منك شيء تقف في المكان الذي ضاع فيه الشيء وتنادي.. يرجع لك الشيء في التو واللحظة.. الآن قل لي يا سيدي أين خبأت مالك؟ ". قال الرجل ذو الأطمار للرجل السارق: " الله يخليك من أجل الكرامة التي خصصتني بها.. وأنا أقول لك الآن.. هذه نقودي.. في رغيف عيشي..!

١٦/ ٥/ ١٩٩٠

فخاخ العيون الجميلة

أنا كاتب. كتبت عددا من القصص صادفت قبولا من القارئين وتشجيعا من النقاد، وأحسن استقبالي في كل مجمـ ـع يضم المثقفين والناس اللامعين وكان حظًا، وكنت أعود كـ ـل مساء راجعًا إلى بيتي في شارع قطر الندى في حي "إمبابة" وتحت إبطي لفة من الكتب والمجلات، وفي قلبي بقايا أنـ ـس الأحاديث. نعم البيوت علت في الشارع وبقي قاعه معتمـ ـا، والمداخل إلى المساكن بقيت دامسة الظلام، والسكة موحلـ ـة زلقة في كل الفصول، بما تكب النسوان فيها الماء الوسـ ـخ، يخرجن بالدلاء من الأبواب، لكن ابتسامهن، وحسن العيون، وتزاعقهن، وذيول الضحكات تنير. يعلمن بأن كلماتي تنشـ ـر في الجرائد وصوري. يصبّحن عليّ، والمساء بخير.

في المساء نقعد قدام التليفزيون، أنا وأمي وأخـ ـواتي في ضوء المصباح الكهربي، تلمع العيون السـ ـوداء ببريـ ـق السرور، ونحن متكئون على الأرائك ونبصق قشر اللب على البلاط العاري. نغرق في الضحك حين الفصول الفكهة ويعلو صوتي مشيرا للمثل: " أنا أعرفه.. يقابلني فـ ـي المجـ ـالس.. يطري كتابتي كل مرة..!! " تطرف ناحيتي أزواج العيـ ـون.

لما قلت مثل ذلك على الممثلة المقتدرة، رنت في عيون أمي وأخواتي لمحة من عدم التصديق. إنها ممثلة مجيدة يطاوعها جسدها في فنها، يبقى مأمورا بكلمات دورها، يطول ويشمخ ينثني ويتأود، وذراعها تتوتران وتلينان مع دفق المشاعر، دفق الإيقاع للحن تحت سلطان العبارة، تشير بيدها حيث اتجهت عيناها،بكل السحر في عينيها، تعبر بهما عن الازدراء والكراهية والترفع، وتلتوي أي فتنة تبدو. آه لو كتبت ما تقوله بكيانها العذب.

في ظلمة غرفتي أرقد ولا تغمض عيناي، لا تريان إلا لعب الشخوص من قصص، وإلا الممثلة القديرة، تتكلم بكلماتي. يقول لها الأب: أسريت إليك هدأة المساء، وانصرفت عنك في الهزيع الأخير، يوما بعد يوم بعد يوم، وفيما بين ترقبك قدومي عليك، ونظرك في أعقابي منصرفًا عنك، فيما بين الوقتين وقت ثالث عشت فيه الحياة غير مفروضة ولا مسنونة، غير مكتوبة ولا مشروطة، غير مبتسرة ولا منتقصة من أطرافها، يوما بعد يوم بعد يوم، تخففت فاستطعت فرأيت، دهشت وعجبت وسررت ثم نظرت كأن ذلك بعض موتي، لك وبك يا حبيبة ". وتتكلم هي، هي

الحبيبة: " لكنني الليلة جربت وقتا ثالثا، لا هو ترقبك قادمً ا ولا هو وداعك مفارقا. وقت آخر، لا يؤذن بـ ه م ؤذن ولا يحدثه تعاقب أفلاك، يستطيل ويعرض، وت تلاطم أمواج ه، تأخذني بالظلمة والرعب، لا أعرف شطا ولا قرارا، أم وت وأموت، لأعاني بلا نهاية الهول الكائن بين البقاء والفناء ".

وينتهي حلم المساء ولم أنم، مفتوح العينين تأخ ذني الرعدة، بارد الأعضاء غارقا في عرقي، كتبت المس رحية، أخذتها للناس، قالوا إنها جيدة، حررتها في لفة أوراقي تحت إبطي وذهبت إلى السيدة في المسرح، وكانت جالس ة ف ي صفوف المتفرجين. أنظر، لقد استدارت الشبة حيث جلست. أتطلع إليها في علوها، والناس جميعا، وهي مضوأة بـ ذاتها، قلت لها: " إنني كاتب..! " قالت: " أعرف! " قلت من عم ق السحر الذي أودى بي بإشارة بنانها وبسمة ونظرة: وكتب ت مسرحية! قالت: " تعال.. اقرأها ل ي.. أن ا أس كن ف ي الجزيرة!".

أعطيت ظهري للنيل، ومضيت نح و البناي ة. ف ي المدخل خرج علي ناس، كل فجوة أبرزت رج لا مش دوهًا يتأملني مذهولا. قلت: أريد أن أرى السيدة! حصل الذعر في

الجماعة، يتنادون، يزعقون، يصرخون، يجرون في كل اتجاه، حتى ظهر زوجها. قال: " ماذا! " رجل أبيض بشع الخلقة قلت: أقرأ لها مسرحيتي! " التوت شفتاه بمنطوقه. قال: " خذ ورقاتك وامض " والتأمت حولي الحلقة من أنفارها يوحّد ملامح وجوههم الإصرار. مشيت محروسًا بغضبهم حتى خرجت.

١٩٩٠

سيدة وحيدة

نحلت حتى بدت كأنها مرسومة على ملاءة السرير، والرسم بالشحوب إلا من رفّة أسيانة عميقة السواد في عينيها، والشوق في ارتجاف باهت على الشفتين، والظلال هنا وهناك، ثم تعتم حتى تصل إلى الدكنة،فتتنهد هي، تعرف امتلاء القلب في أنفاسها.

تسمع صوت الرجلين في مستراحهما، وقد دثرت لهما الحشايا وزينت الغرفة بالنور لهما . الرجلان . ومدت حلو الطعام وما يروق من شرب. يزدهيان الآن بالنعمة، وينتشيان، ويبدو على كل منهما كل لون. تصفو الأصوات تحملها إليها ضحكاتهما مترقرقة متوثبة من قلب ابتهاجهما . الرجلان . آه لو يدوم مجلسهما أبدا، والودّ، إن ذلك يحمل أملا. لكن وشيك تصرم فرحة المساء. اضطرب الرسم بالشحوب على ملاءة السرير من تندي العينين بالدموع.

وكان لهما شأن مع كل بدء، يضطربان بالبدء، يطيران فوقه يريدان أن يتجاوزاه، يجريان في البيت وهي معهما في أول المساء لا يحوشهم باب، الحيطان شفت عن الأصوات وعن روائح الطبيخ. مباهية بما طبخت، تضحك.

يخطفون الأشياء، والخزائن مفتوحـ ـة والسـ ـلال. يمـ ـلأون الأطباق حتى يصير الكمال سمة المائدة، وزينة سيدة الـ ـدار. مباهية بما ارتدت، والزواق. يجلسون ثلاثتهم، ثلاثة وجـ ـوه تبرق، الفرحة في العيون وفـ ـي لؤلـ ـؤ الثنايـ ـا، ويتشـ ـرب الاسمرار برائق السرور. الرجلان. تحبهما، رجلها والرجل.

في ذلك المساء أسرعت إلى هنا، طارت إلى مخدعها هـا هنا، خفّت بما يعمر الجسد من ظنون فرحة. خلعت عنـ ـا ثيابها. مشت إلى الصوان محلقة عن قـ ـدميها. هـ ـل يختـ ـار هجس المساء ثوب المساء؟ ويحسن الاختيار؟ بان جسمها في المرآة. سُرّت بما رأت. ظلت تتأمل، وتميل وتنثني وتتـ ـأود، وسعادتها ترسم الصورة في المرآة حتى رأته ـ الرجـ ـل ـ كأنما ندهته لها الأشواق، أشواق سحيقة. وجاءها.

في نسيانها أغمضت عينيها، في ظنها أسلمته كيانها، ينفطر عن دفق الرغبة. لحظات قصار دامـ ـت فـ ـي الفكـ ـر طويلا. فتحت عينيها لتجد وجه الرجل غارقا في الـ ـذهول، يعذبه النكوص، وهي على هذا الحال، وهو لم يفعل. أفاقت. رفعت يديها لتذود عينيه عنها. الرجل استدار وخرج. مضى. تركها تستر نفسها بالثياب، تحكمها علـ ـى نفسـ ـها، وتتأمـ ـل

الصورة في المرآة، تسأل: أيكتم الثوب الأسرار؟ مشت إلى مستراحهما في الغرفة القصية، إنهما الرجلان، وأحدهما يعرفها بالزواج، والآخر عرفها بما رآه خلسة وعلى ذات فجأة، تقضي معهما المساء المكرس للمتعة.

أيظن زوجها بها الظنون؟ أيأمل صديقه منها شيئا؟ المساء صاخب الضحك والزياط، وتحت الضجة تضرب الأحاديث المهموسة حتى لا تدركها الآذان ولا الأفهام.. أحاديث تحدس الوهم وتجسد منه الحقائق. يثقلها رجم الشكوك حتى تكاد تختنق، فاستعفت وقامت إلى مخدعها، جاءت إلى هنا واستلقت حيث هي الآن راقدة، الشحوب ممدد، أسبلت جفنيها، وسحَّت من العينين قطرتا دمع.

جاءها الرجل في عملها. لما رأته غشَّاه عليها غشاء من رقيق العبرات. إنه الذي يعرفها. فرحت به، وخافت منه، ورحبت. لكن وجهه غارق في الذهول، يعذبه النكوص. رفعت يديها لتذود عينيه عنها. لكنها رجعت، رحّبت، لزمت الأدب. الرجل في ضيافتها قدام زملائها في عملها. حادثها مجاملا وهي أحسنت الرد. ثم قام خرج، مضى وتركها تتألم لفراقه.

وفي المساء . بعد مسائهما . جاء رجلها إلى هنا لكي ينام. تنصت لتردد أنفاسه، تنصت للأحاديث التي تجري من تحت صمتهما في فراشهما، هويتهما وهي تدفع عن نفسها غيلة الشكوك. عبرت المسافة التي تفصل بين جسديهما، الصمت عميق، التصقت به. مدت يدها العالية إليه. أراحت كفها . رقيقا وسيما . على صدره يتحسس، يغرق في كثيف الشعر . خشنًا . تموجت يدها بين الخصل والدفء، برفق وقعت يده . كبيرة محيطة . على يدها، قبضت عليها، رفعتها، أبعدتها. من ثم تكونت المسافة بين جسديهما، وكان أن رقد الرجل بينها وبين زوجها. الشحوب مستلق، أرق على ملاءة السرير، يتحسس الخيال الراقد جنبها، تحس بدفئه، يغريها وجهه الحافل بالتردد، ترق له وتبكي.

وإذن جاءها الرجل في يوم عطلتها وهي وحيدة في بيتها مشغولة بالترتيب والزينة وقد تخففت وتتبدى الأعضاء بآثار من العرق، وتسرب النسائم تجفف وتنعس، تريد أن تُحلِّق، تطير على طرفي قدميها، يسمق الحس في القوام، لكنه طرق الباب، وهي فتحت له وهي هكذا متخففة، قال لها:

" أحبك..! " وعيناه طائران تائهان. هكذا استراحت في حضوره المتسم بالغياب. قالت له حالمة كأنما تحادث نفسها: " إنني مملوكة بالزواج..! " قال لها: " إنني أملكك بالحب " وعلى وجهه صفرة، همس: " تعالي إليّ.. " وجاوبته " لا أستطيع..! " قال لها: " لقد رأيت شروقك في المرآة..! " تعذبت بالرحمة له قالت: " لا.. يا سيدي..! " قام.. أدار لها ظهره وكلمها: " تحنثين في عهدك للحب وهكذا للزوج.. " ارتسم شموخه في قلبها وهي تسمع: " إنني قادم هذا المساء، وكل مساء.. كأنما لم تكوني أبدا..! "

وفي المساء . بعد مسائهما . يرجع رجلها إلى هنا لكي ينام. وجهه بسّام بالمتع. كم ضحكا ولعبا في سهرهما، ويأتي إلى سريره يغرق في النوم، نوم غير مؤرق بالأحاديث والظنون. وتبقى هي يقظانة.. سيدة وحيدة.. آه لو يدوم مجلسهما أبدا؛ إن ذلك يحمل أملا. في أي شيء؟ تقلَّبت على الملاءة، وستر ليل شعرها تفاصيل ملامحها.

١٩٩٠

إحدى القضايا

في محكمة مصر الجديدة الجزئية زحام من الخل ق، متقاضين ومحامين وشرطة وكتبة وباعة وأفراد غامض ين، ما إن يدخل الواحد من باب على جانبيه عم ودان شد اهقان حتى يميل يسارا، يتحذر في مشيته كيلا يصدم الناس، وه م يتّقونه بالأكتاف، وزعيقهم غلاب حتى ما يسمع الواحد حديث رفيقه، وروائحهم وعطورهم وعرقهم، والتبغ سد حبه تطي ر فوق الرءوس، تطيرها كلمات زاعقة وضد حكات منكس رة، ونهنهات وسعال ولعنات. من جدول القضايا عرفت السد يدة أن دورها سيأتي عند الرقم سبعين. القاعة غاصد ة بالنس اء مطليات الوجوه، والرجال في ثياب خلقة، كل زوج منهما . رجل وامرأته . يشغلهما هم خاص ونزاع، لكن القاعة يرين عليها الصمت إلا من نحنحات وهمسات مكتوم ة وصد وت تقليب الأوراق.

على المنصة قاض يقل ب ف ي مس تنداته بس رعة وغضب، والحاجب يسند مرفقه على منصة القاضي وينادي على الأرقام. قدام هيئة المحكمة يقف المحامون والمتنازعون يكادون يحجبون الهيئة عن الجالسين. تشرد السيدة تفكر ف ي

أمرها، تتذكر وجهها في مرآة الصبح. كان وجها وسيما، إلا من تجعيدة هنا وأخرى هناك. صـ راخ القاضـ ي أفزعهـ ا، فأصرت على الطلاق.

أمها وجه يغرق في التوسل إليها: " لا تطلقي زوجك يا بنيتي! " وأبوها وخالها قالا لها: " الطلاق حرام يا بنيتي! " وهي الآن سوف تتحرر منه إلى الأبد. أصـ رت ولا زالـ ت مصرة. شملتها الفرحة بالخلاص، تغطي على رعدة خفيفـ ة غرقت في تيار الفرح، القاضي يطل من بين أجساد الواقفين قدامه، عيناه الحولاوان لا يعـ رف الواحـ د مـ ن تصـ يبهما بالنظرات، لكنه صرخ في الحاضرين وهي لا تعـ رف مـ ن يقصد، قال: " ارم السيجارة يا هذا الذي تدخن هناك! " دارت بعينيها تبحث عمن يقصد، إنه يقصد زوجها الذي ستطلق منه حالا، وجهه أبيض من التحرج والمهانة. يا له من رجل هزل في أيامه الأخيرة، وجهه مسـ تطيل وعينـ اه غارتـ ا، ألقـ ى سيجارته على الأرض وسحقها بقدمه، حولت وجهها عنـ ه والتفتت إلى الأمام، وغرقت في كآبة وحيـ رة واستعصـ اء الفكر، تمنت أن تدخن سيجارة، لكن هذا القاضي هناك.

جاء دورها هي وزوجها، وقفا قدام المنصة وبينهما المحامون، بدأ القاضي دورة غضبه يصبها على أول من يصادفه بالسؤال. سأل زوجها: " هل كنت تدخن في قاعة الجلسة؟ "

قال الزوج وهو منهك خفيض الصوت: " إنني لم أكن أعرف أن ذلك لا ينبغي، هذه أول مرة أحضر فيها قضية! " قبل أن يتم جملته انقض عليه القاضي بسؤاله التالي: " ما اسمك؟ ضابط في القوات المسلحة. لِمَ لمْ ترتد ثيابك الرسمية؟، قدمت استقالتك؟ لماذا إذن تحتفظ ببطاقتك العسكرية؟ إنني أستطيع أن أسجنك بهذا..! " وإجابات الضابط تعجن في أسئلة القاضي، يرعد هذا بكلماته والآخر همساته غائرة تكاد تستحيل إلى لهاث، قال: " إنما أحتفظ بالبطاقة حتى ينتهي أمري فأسلمها! " فصرخ به القاضي: "لست أهلا لحملها، وهذا معاقب عليه! "

والسيدة ترى زوجها على قدر من سوء الحال، وحال من الهوان، قالت للقاضي: " إننا يا سيدي هنا نناقش أمر طلاقنا، فلماذا لا تمضي بالأمر إلى مساره؟ " فصرخ بها: "ألا يمكن أبدًا أن أتحقق من شخصية المتنازعين؟ وأحاسب

من يحمل بطاقة لا يستحقها؟ " فصرخت به تجاوبه: " ناقش طلاقي يا سيدي ولا تهدد السيد بالسجن أيا ما كانت البطاقة التي يحملها! " لوّح القاضي بيده عاليا وقال لها: " أنت تدافعين إذن عن خصمك في القضية يا سيدتي..؟ " فدقّت السيدة على المنضدة بقبضتها وتكلمت في وجهه حتى لفحته أنفاسها: " لا باس عليّ إن دافعت عنه إذا كنت أنت قد آذيته! " فضحك القاضي ضحكة مفعمة غضبًا وثورانًا، وقال لها: "تعطفين على خصمك وتميلين إليه؟ " احمرّ وجه السيدة وفاضت الدموع من عينيها، وقالت: " نعم إذا كنت تؤذيه! " قال لها القاضي: " إذن لا محل للخصومة بينكما؟ " ثم رفع سبابته وصوبها إلى وجه السيدة: " إنني سأشطب القضية من الجدول " فانفجر غضب السيدة وتصاعدت نهنهاتها حتى ملأت القاعة، قالت له: " افعل يا سيدي.. افعل يا سيدي..! " مال القاضي على كاتبه وكلّمه أن يشطب القضية، ثم نظر للسيدة شمتانَ: " هل رأيت..؟ " فقالت له: " نعم رأيت.. لقد رأيت! " فقال لها: " خذي زوجك واذهبا..! " مدت السيدة يدها وقبضت على يد زوجها وقالت للقاضي: " نعم سأفعل " وطاوعها زوجها.

١٩٩٠